مقدّمة

الحمد لله القائل في محكم تنْزيله: ﴿ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾[١].

وأصلي وأسلم على سيدنا ونبينا محمد القائل: «اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليّها ومولاها» وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛ فقد كثرت الدراسات والبحوث المتعلقة بالنفس الإنسانية وتناول الكثير من العلماء والفلاسفة موضوع النفس بالتحليل والتفسير لماهيتها وأمراضها وعللها وعلاجها، وأهميتها، فظهرت مدارس مختلفة واتجاهات متعددة. ولا شك إن اهتمام الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية بالأمور النفسية يدل على أهميته.

والمظاهر الدالة على ذلك من مباشرة وغير مباشرة عديدة. فالكثير مما نشكو منه نرده إلى عوامل نفسية، واللغة التي نستخدمها يومياً لا تخلو من بعض التعابير والمصطلحات النفسية، ووسائل الإعلام والتثقيف على اختلافها، تكاد لا تخلو جميعها من الوسائل النفسية والأهداف النفسية[٢] .

وقد خصص العالم يوماً وهو العاشر من أكتوبر يوماً عالمياً للنفس[٣] ولأهمية النفس أقسم الله تعالى بها فقال جلّ شأنه: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم

(1) سورة الشمس آية ٧ ــ ١٠

(2) علي كمال – النفس، انفعالاتها وأمراضها وعلاجها – ص ١٥

(3) جريدة المدينة المنورة العدد ١٣٣٢٠ الجمعة جمادي الآخرة ١٤٢٠ ص ٣

بالنفس اللوّامة﴾[1] وشرع للناس منهجاً متميزاً في تربيتها وتقويمها وإصلاحها وعلاج آفاتها بما يحقق الغاية الأساسية من خلق الإنسان وهو عبادة الله سبحانه وتعالى، وكان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم النموذج المثالي لهذا المنهج.

ومما لاشك فيه أن في حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الكثير من الدروس والعبر والنماذج الصحيحة المثالية في تطبيق منهج التربية الإسلامية في تربية النفس.

- أهمية الدراسة:

تنبع أهمية البحث من جانبين:

الجانب الأول:

موضوع النفس، فالنفس كما يقول ابن القيم: «أنها منبع كل شر، ومأوى كل سؤ، وأن كل خير فيها ففضل من الله منَّ به عليها. لم يكن منها قال تعالى: ﴿ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الرّاشدون﴾»[2].

ولا شك أن ربط القرآن الكريم صلاح الإنسان وفلاحه وفساده بالنفس أكبر دليل على أهميتها، وقد ذكر صاحب الأضواء أن «النفس في تسويتها لتلقى معاني الخير والشر، واستقبال الإلهام للفجور، والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التي لا تبدي ولا تعيد، والتي لا تملك سلباً ولا إيجاباً»[3].

(1) سورة القيامة آية ١ – ٢

(2) ابن القيم – مدارج السالكين – ج ١ ص ٢٤٣

(3) محمد الأمين الشنقيطي – أضواء البيان – ج ٩ ص ٢٤٤

فالنفس أعظم من كل الآلات الالكترونية لأنها من صنع هذه النفس ذات الإدراك النامي والاستنتاج الباهر، ولأن تلك الآلات لا تخطئ لأنها تعمل وفق ما رُسم لها وحُدد ولهذا فهي لا تخطئ، أما النفس فإنها تخطئ وتصيب لأنها تجتهد، كما أن مجيء النفس بعد الشمس والضحى والقمر والنهار والليل والسماء والأرض دلالة على أنها أعظم من تلك المخلوقات[1].

فإذا كانت النفس لها هذه المكانة والأهمية في القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن دراستها وتحديد منهج التربية الإسلامية في تربيتها وتوجيهها إلى الهدف المنشود هي من الأوليات التي تهم كل مؤمن ومؤمنة.

الجانب الثاني:

جانب الصحابة، فمما لاشك فيه أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم هم سلف الأمة وخيرها بعد رسول الله ﷺ، وقد أمرنا الشارع الكريم بالاقتداء بهم، فعن العرباض بن سارية « قال وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب قلنا يا رسول الله إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا قال قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعليكم بالطاعة وان عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد»[2] ولقد أدرك الصحابة خطورة النفس، وأهميتها فقدموا أروع الأمثلة والنماذج في تربيتها على النهج الذي شرعه الله سبحانه وتعالى، وتهذيبها وتسخيرها فيما أوجبه الله سبحانه وتعالى من

(1) المرجع السابق

(2) أحمد بن حنبل – المسند – ج ٤ ص ١٢٦

أعمال وطاعات وإبعادها عن كل ما نهى الله عنه.

- مشكلة الدراسة:

تتحدد مشكلة هذه الدراسة في مغالاة بعض الناس في النظر إلى النفس وجعلوها سيدة هذا الكون، فأصيبت بداء العظمة والغرور مما أوردها المهالك، في حين غالى آخرون في احتقارها وسلبوها كل قيمة لها فانسحبوا من الحياة وطرحوا الشواغل وتركوا الأعمال[1] ولا يزال الإنسان يبحث عن المنهج القويم للتعامل مع النفس، والنموذج المثالي الذي يمكن أن يقتدي به، يكون نبراساً له يُنير له طريق الخير والفلاح، ويجنبه طرق الفساد والضلال.

ولما كان منهج التربية الإسلامية هو المنهج القويم في تربية النفس، وقد أُمرنا بإتباعها وترك ما سواها قال تعالى: ﴿ثمّ جعلناك على شريعةٍ مّن الأمر فاتّبعها ولا تتّبع أهواء الّذين لا يعلمون﴾[2] فإن هذه الدراسة تطرح الأسئلة التالية:

١– ما أهم خصائص النفس كما وردت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية؟

٢– وما أهم ركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس؟

٣– وما منهج التربية الإسلامية في علاج آفات النفس؟

٤– ما أبرز النماذج لحياة صحابة رسول الله ﷺ في تربية النفس؟

- أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

١– بيان أهم خصائص النفس في القرآن الكريم والسنة النبوية .

(1) سيد صبحي – الإنسان وصحته النفسية – ص ٣٩

(2) سورة الجاثية آية ١٨

٢- تحديد أهم الركائز التي تعتمد عليها التربية الإسلامية في تربية النفس.

٣- بيان منهج التربية الإسلامية في علاج آفات النفس وأمراضها .

٤- ذكر نماذج مثالية من حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في تربية النفس.

- حدود الدراسة:

لما كان موضوع النفس من الموضوعات الشيقة والمحببة إلى النفس ومن الموضوعات الواسعة التي لا يمكن حصرها في دراسة واحدة، لذا رُئي الاقتصار على بيان أهم صفات النفس من المنظور الإسلامي، وأسس وركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس، والعوامل المعينة على تربيتها، وطرق علاج آفاتها، وكيف استطاع الصحابة أن يتعاملوا مع أمراض النفس وانفعالاتها وعللها حتى أصبحوا النموذج الأمثل والشواهد الصحيحة لنموذج إنسان التربية الإسلامية.

- منهج الدراسة:

اتبع الباحث المنهج الاستنباطي في تحديد خصائص النفس في القرآن الكريم والسنة النبوية، وفي تحديد ركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس، وعلاج آفاتها، وذلك بتتبع الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية حول ما ورد فيهما عن النفس وخصائصها وتربيتها وعلاج آفاتها.

كما استخدم الباحث هذا المنهج في تتبع الأحاديث والآثار الواردة من حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والتي تمثل النموذج المثالي في تربية النفس وفق منهج التربية الإسلامية.

- مصطلحات الدراسة:

المنهج والمنهاج هو الطريق الواضح البين.

والتربية في اللغة تعني الزيادة والتنشئة والتغذية، وتعني أيضاً التنمية، فربا الشيء رَبواً ورُبواً زاد ونما، ويقال فلاناً غذاه ونشأه أي نمى قواه الجسدية والعقلية والخلقية، وتربى أي تنشأ وتغذى وتثقف[1] .

وأما المقصود من (منهج التربية الإسلامية) فهي «الرسالة السماوية الخالدة، بكل ما جاء فيها من أمور عقدية تتعلق بتوحيد الله، وبكل ما يتعلق بالإنسان والكون والحياة، وما يتعلق بالأمور الغيبية التي أخبر عنها، وبكل ما جاء من أمور تشريعية وتعليمية تحدد أعمال العباد، وتؤدي إلى تربية الإنسان المتكامل في جميع نواحيه الدينية والدنيوية والأخلاقية»

(النفس) ذات الإنسان بكل دوافعه وعواطفه ونشاطه وتفكيره وفهمه.

(الصحابة) رضوان الله تعالى هم من صحب النبي ﷺ وآمن به ومات على ذلك.

- الدراسات السابقة:

كتب حسن الشرقاوي كتاباً سماه (التربية النفسية في المنهج الإسلامي)[2] حيث قسم المؤلف الكتاب إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: مفهوم التربية في النظرية الإسلامية وغايتها.

الفصل الثاني: التربية النفسية الإسلامية، خصائص الوسط العدل – الفن الإسلامي والتربية الإسلامية، حيث حاول المؤلف من خلال خصائص الوسط العدل بيان أهمية هذا الجانب في التربية النفسية، حيث يقول أن «الاعتدال معناه عدم التجبر كما أن معناه أيضاً عدم الجبن والخنوع، فالجبن تضيع للحقوق والخنوع مذلة ونفاق ورياء يميت الحق من القلب واللسان، والجبن والتجبر

(1) إبراهيم أنيس وآخرون – المعجم الوسيط – ج ١ ص ٣٢٦

(2) حسن الشرقاوي – التربية النفسية في المنهج الإسلامي – مكتبة دار الشروق، جدة

كلاهما خروج من حد الاعتدال والتوازن، فإذا كان التجبر إفراط فإن الجبن تفريط وإذا كان في التجبر والطغيان إسراف في القوة المادية فإن في الجبن والخنوع نقص في هذه القوة، ولا علاج لذلك إلا بالرجوع إلى حد الاعتدال الذي تستقيم به مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع»[1] . وقد حاول المؤلف توجيه الفن والتمثيل وجميع وسائل الإعلام في غرس وتنمية بعض العادات الصالحة في نفوس السامعين والقراء والمشاهدين وربط عرى المحبة والألفة بين الناس، وتشجيع روح العطاء والبذل، ومن ناحية أخرى حث المؤلف على استخدام الفن في عرض مثالب النفس والطرق التي يوقع بها الشيطان فريسته من بني الإنسان.

الفصل الثالث: بين المؤلف خصائص النفس الإنسانية ومواقفها، فذكر النسيان – الغفلة – النفس الكذوب – الاعتراض والتحدي، ثم تطرق إلى آفات النفس في النظرة الإسلامية.

الفصل الرابع: النظرة الإسلامية للانحراف الأخلاقي، نقل عن الإمام الغزالي أصناف الناس (الشخص المتصلب – الغافل – الشخص الشهوي – الشخص المنحرف – الشخص الشرير) وبين المؤلف دور القصاص في علاج العدوان ووظيفة الطبيب المربي.

الفصل الخامس: ذكر المؤلف نماذج من السلوك الإنساني في القصص القرآني فضرب لذلك أمثلة: يوسف عليه السلام – زليخة امرأة العزيز – الإخوة الحاقدون – عيسى عليه السلام – لوط عليه السلام وقومه.

علاقة بحث الشرقاوي بهذه الدراسة:

إن موضوع النفس من أوسع الموضوعات، و لا يمكن لباحث أو مؤلف أن يجمع كل ما يتعلق بالنفس في دراسة واحدة، وتختلف هذه الدراسة عن

(1) المرجع السابق

دراسة الشرقاوي في نواحي كثيرة، ومن هذه النواحي:

– ركز الشرقاوي في دراسته على الفن واستخدامه في تربية النفس، واستخدام التمثيل والغناء في علاج النفس وتربيتها، وهذا مما يختلف الباحث مع الشرقاوي، وذلك لحرمة التمثيل والغناء في الشريعة الإسلامية[1] .

– ذكر الشرقاوي بعض آفات النفس، وأصناف الناس، ثم ذكر نماذج من السلوك الإنساني في القرآن الكريم، وأما هذه الدراسة فقد ركزت على بيان ركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس، وعلاج آفاتها على وجه العموم، مع ضرب أمثلة من حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

- خطة الدراسة:

تنقسم هذه الدراسة إلى مدخل للدراسة وثلاثة فصول:

مدخل الدراسة: وتتضمن مقدمة الدراسة، أهمية الدراسة، مشكلة الدراسة، أهداف الدراسة، حدود الدراسة، منهج الدراسة وشرح المصطلحات الواردة في هذه الدراسة، وبيان لأهم الدراسات السابقة.

الفصل الأول: خصائص النفس في القرآن الكريم والسنة النبوية.

الفصل الثاني: ركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس.

الفصل الثالث: منهج التربية الإسلامية في علاج آفات النفس

الخاتمة ثم فهرس المراجع وفهرس الموضوعات.

---

(1) انظر بكر أبو زيد – التمثيل حقيقته، تاريخ، حكمه، دار الرياض، ط ١، ١٤١١هـ.
أحمد يحي النجمي – تنْزيه الشريعة عن الأغاني الخليعة – الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٥هـ.

الفصل الأول:

خصائص النفس في القرآن الكريم و السنة النبوية

النفس في اللغة: هي الروح وهناك من يميز بينهما، وقد سميت النفس نفساً لتولد النفس فيها واتصاله به، كما سَموا الروحَ روحاً لأن الروح موجودة به، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: لكل إنسان نفسان: إحداهما نفس العقل الذي يكون به التمييز والأخرى نفس الروح الذي به الحياة، والعرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز، وذلك أن النفس قد تأمره بالشيء وتنهى عنه، وذلك عند الإقدام على أمر مكروه فجعلوا التي تأمره نفساً وجعلوا التي تنهاه كأنها نفس أخرى.

يقول عمر الأشقر: «وهذا المخلوق الذي به تكون الحياة، وتفقد الحياة بفقده يسمى روحاً ونفساً، ولا يمنع هذا أن تطلق كل من الروح والنفس اطلاقات أخرى، يقول ابن تيمية: لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان: فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداء الساري في العروق، وهو الذي تسميه الأطباء الروح، ويسمى الروح الحيواني، فهذان المعنيان غير الروح التي تفارق بالموت التي هي النفس، ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه»[1] .

أما النفس الحيوانية التي هي حقيقة الروح فشيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه.[2].

(1) عمر الأشقر – اليوم الآخر القيامة الصغرى – ص ٨٦

(2) أبو البقاء الكفوي – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – ص ٨٩٧

أما في الاصطلاح: فقد اختلف العلماء والفلاسفة قديماً وحديثاً في تحديد ماهية النفس، ورغم تقدم علم النفس المعاصر في كثير من الدراسات النفسية إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد ماهيته، ورغم التقدم العلمي في مجال البحوث بصفة عامة والدراسات النفسية بصفة خاصة إلا أن تلك الدراسات اعتمدت على وصف لظاهر سلوك الإنسان وخبراته فقط، بل إننا نجد أطباء النفس لم يستطيعوا تحديد ماهية الأمراض النفسية كما فعله زملائهم في تشخيص الأمراض الجسمية والعقلية، فنجدهم يعرفون المرض النفسي بطريقة الحذف والاستبعاد، فيعرفون المرض النفسي بأنه «المرض الذي لا هو جسمي ولا عقلي»[1].

وأما النفس في القرآن الكريم والسنة النبوية فقد ورد بصيغ المفرد والجمع قال تعالى: ﴿واتّقوا يوماً لاّ تجزي نفسٌ عن نّفسٍ شيئاً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وإذا النّفوس زوّجت﴾[4]، كما خاطب سبحانه وتعالى النفس بقوله: ﴿يا أيّتها النّفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضيةً﴾[5]، واستنبط المرسي من خلال دراسته للنفس في القرآن الكريم أن النفس في القرآن الكريم يدل على ذات الإنسان، بكل دوافعه ونشاطه وتفكيره وفهمه وعواطفه[6] قال تعالى: ﴿لا تكلّف نفسٌ إلاّ وسعها﴾[7].

(1) علي كمال – النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها – بتصرف

(2) سورة البقرة آية ٤٨

(3) سورة الكهف آية ٢٨

(4) سورة التكوير آية ٧

(5) سورة الفجر آية ٢٧– ٢٨

(6) سيد عبد الحميد مرسي – النفس البشرية – ص ٤٢

(7) سورة البقرة آية ٢٣٣

وقال تعالى: ﴿يا أيها الّذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾[١] .

ومن الأمثلة على استعمال القرآن الكريم كلمة النفس للإشارة إلى ضمير الإنسان وطويته (أي نيته وقلبه) قوله تعالى: ﴿ ربّكم أعلم بما في نفوسكم﴾[٢] .

قال سعيد بن جبير: ((هو الـــرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخـــذ به))[٣] وقولـــه تعالى: ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[٤] والباحث يميل إلى ما ذكره المرسي أن المقصود بالنفس (ذات الإنسان بكل دوافعه ونشاطه وتفكيره وفهمه وعواطفه).

وللنفس في القرآن الكريم خصائص وصفات عدة منها:

١– النفس اللوَّامة:

من أهم صفات النفس صفة (اللوَّم) وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه النفس فقال تعالى: ﴿ ولا أقسم بالنّفس اللّوّامة ﴾[٥] قال ابن كثير أي التي تلوم صاحبها على الخير والشر ويندم على ما فات[٦].

وفي اللغة اللوَّم: العَذْل، تقول لامَه على كذا لوماً ولومه، فهو ملوم، ولَوَّمَه شدَّة المبالغة[٧] وفي تفسير معنى اللوَّامة ذكر الراغب الأصفهاني أنها ((النفس التي اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكبت مكروهاً فهي

(1) سورة التحريم آية ٦

(2) سورة الإسراء آية ٢٥

(3) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٣ ص ٣٩

(4) سورة الرعد آية ١١

(5) سورة القيامة آية ٣

(6) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٤ ص ٤٧٧

(7) الجوهري – الصحاح – ج ٥ ص ٢٠٣٤

النفس المطمئنة، وقيل بل هي النفس التي قد اطمأنت في ذاتها وترشحت لتأديب غيرها فهي فوق النفس المطمئنة»[1].

وقد بين ابن الجوزي في تفسر اللوَّامة ثلاث أقوال؛ أحدها: أنها المذمومة، قاله ابن عباس، فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم. والثاني: النفس المؤمنة، قاله الحسن قال لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال. والثالث: أنها جميع النفوس، قاله: الفراء ليس من نفس بَرَّةٍ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قال: هلا زدْت. وإن كانت عملت سوءاً، قال: ليتني لم أفعل[2].

ونقل سيد مرسي عن إبراهيم سرسيق معنى اللوَّامة بقوله: «اللوَّامة: صيغة مبالغة من اللوَّم، وهو شدة التعنيف والمؤاخذة فاللوَّامة كثيرة التعنيف لصاحبها وهذا اللوّم الواقع من النفس اللوامة لصاحبها يتجه في طريقين:

١- محاسبة صاحبها على وقوعه أو ارتكابه للعمل السيئ، كاقترافه معصية من المعاصي أو توجهه بالأذى لمن لا يستحقه، أو عقابه على الشر بأكثر من المثل، وهي بهذا اللوم الدائب توقظ في صاحبها روح التوبة، وتحمله على الرجوع عن تميز سبيل المؤمن، والاتجاه إلى الله تعالى لإصلاح ما فات، وطلب العفو عما اقترف من سيئات.

٢- محاسبة صاحبها على التقصير في العمل الصالح، وهذه المحاسبة ذات شقين:

أ- محاسبة على التقصير في أصل العمل الصالح. كترك التصدق على

(1) الراغب الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – ص ٤٥٦

(2) ابن الجوزي – زاد المسير في علم التفسير – ج ٨ ص٤١٦

مسكين، أو إهمال العطف على يتيم، أو القعود عن نجدة مستغيث، وهي بلومها على التقصير في أصل الفعل النبيل، إنما تحول مجرى السلوك إلى سلوك آخر أفضل منه، وتستحثه بقوة واستمرار على المثابرة في الطاعة، والمسارعة في فعل الخير.

ب – محاسبة في الاستكثار من فعل الخير: مثل لومها على التصدق بمبلغ صغير، ولومها على إطعام فقير لا فقيرين أو أكثر، ولومها على استضافة شخص مدة يسيرة لا كبيرة.. وهكذا))[1] .

وقد اختلف العلماء في تحديد صفة اللوم، هل هي صفة مدح أم ذم؟ وخرج ابن القيم إلى أن النفس اللوامة ليست ممدوحة على الدوام أو مذمومة على الدوام، وإنما ينظر إليها من ناحية ما تلوم عليه، فإن لامت على الخير فهي مذمومة وإن لامت على الشر فهي ممدوحة[2].

دور النفس اللوَّامة في التربية النفسية:

استطاع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم التعامل مع (النفس اللوَّامة) في تربية النفس وتوجيهها على النهج الذي تركهم عليه ﷺ، فجعلوا منها أداةً ووسيلة فعَّالة في توجيه الإنسان ودفعه إلى الخير وإبعاده عن مواطن الشر. فالنفس اللوامة لا تكتف بمجرد محاسبة الإنسان على وقوعه وارتكابه لمعصية أو ذنب من الذنوب، بل هي ترفع بصاحبه إلى الدرجة التي تحاسبه فيها على التقصير في العمل الصالح، وليس ذلك فحسب بل وتلومه لِمَ لَمْ تزيد في فعل الخيرات والإكثار من الحسنات والطاعات.

(1) سيد عبد الحميد مرسي – النفس المطمئنة – ص ٥٦

(2) ابن القيم – إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان – ج ١ ص ٩٤

ولقد بلغت بهم حساسية النفس اللوامة أن أصبحوا يخافون على أنفسهم حتى من المباحات. عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: «بعث إليَّ عمر بن الخطاب ﷺ فأتيته، فلما بلغت الباب سمعت نحيبه، فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون! اعترى – والله – أمير المؤمنين، فدخلت فأخذت بمنكبيه وقلت: لا بأس لا بأس يا أمير المؤمنين، قال: بل أشد البأس فأخذ بيدي فأدخلني الباب، فإذا حقائب بعضها فوق بعض ! الآن هان آل الخطاب على الله، إن الله لو شاء لجعل إلى صاحبي – يعني النبي ﷺ وأبا بكر – فسنّا لي فيه سنة اقتدي بها، قلت: اجلس بنا نفكر، فجعلنا لأمهات المؤمنين أربعة آلاف، وجعلنا للمهاجرين أربعة آلاف، ولسائر الناس ألفين ألفين حتى وزعنا المال»[1].

وعن نوفل ابن اياس الهذلي قال: «كان عبد الرحمن ﷺ جليساً وكان نعم الجليس وإنه انقلب بنا يوماً حتى دخلنا بيته، ودخل فاغتسل ثم خرج فجلس معنا، وأتينا بصحفة فيها خبز ولحم، فلما وضعت بكى عبد الرحمن بن عوف، فقلنا له: يا أبا محمد ما يبكيك؟ قال هلك رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير، ولا أُرانا أُخرنا لما هو خير منها»[2].

وقد بلغ الصحابة في تأديبهم لأنفسهم أنهم جعلوا كل أمانيهم وأحلامهم خدمة الإسلام والمسلمين، فلم تعد نفوسهم تتمنى الدرهم والدينار من أجل متاع الدنيا وهو حق مباح، بل يريدونها من أجل إنفاقها في سبيل الله. فعن زيد ابن أسلم عن أبيه: «أن عمر بن الخطاب ﷺ عنه قال لأصحابه: " تمنَّوا فقال أحدهم: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت دراهم فأنفقها في سبيل الله. فقال تمنَّوا،

(1) الكاندهلوي – حياة الصحابة – ج ٢ ص ٦٤

(2) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٥

فقال آخر: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت ذهباً فأنفقها في سبيل الله. قال: تمنَّوا، قال آخر: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت جوهراً أو نحوه، فأنفقه في سبيل الله، فقال عمر: تمنَّوا، فقالوا: ما تمنينا بعد هذا. قال عمر: لكني أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم فأستعملهم في طاعة الله، قال، ثم بعث بمال إلى حذيفة قال: انظر ما يصنع، قال: فلما أتاه قسمه، ثم بعث بمال إلى معاذ بن جبل فقسمه، ثم بعث بمال يعني إلى أبي عبيدة– قال انظر ما يصنع فقال قد قلت لكم، أو كما قال»[1].

ولقد صدقوا في أمانيهم، ورأينا كيف تعامل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم عندما بسطت لهم الدنيا، فهذا يبكي لزيادة دخله، وذاك يبكي بمجرد أن تكون هذه ممن عُجّلت لهم الدنيا، ولولا الخوف من الإطالة لأوردنا الكثير من الأمثلة من حياة الصحابة، لبيان تلك النفوس المؤمنة الكريمة الحريصة على عدم مطاوعة النفس في إشباع شهواتها وملذاتها، وإرغامها على العيش كما كانت مع النبي ﷺ.

٢– النفس المطمئنة:

الطمأنينة: السكون، فطمأن الشيء: سكنه، واطمأن الرجل اطمئناناً وطمأنينة أي سكن وفي التنْزيل﴿ الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنّ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وما جعله الله إلاّ بشرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم﴾[3] وقال تعالى: ﴿ يا أيّتها النّفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية

(1) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٣

(2) سورة الرعد آية ٢٨

(3) سورة آل عمران آية ١٢٦

مَّرضِيَّةً﴾[1].

قال ابن عاشور: «و (المطمئنة): اسم فاعل من اطمئن إذا كان هادئاً غير مضطرب ولا مترعج، فيجوز أن يكون من سكون النفس بالتصديق لما جاء القرآن دون تردد ولا اضطراب بالٍ فيكون ثناءً على هذه النفس ويجوز أن يكون من هدوء النفس بدون خوف ولا فتنة في الآخرة، وقال أيضاً ووصف النفس بالمطمئنة ليس وصفاً تعريفياً ولا للتخصيص، أي لتميز المخاطبين بالوصف الذي يميزهم عمن عداهم فيعرفون أنهم المخاطبين المأذونين بدخول الجنة ولا أنهم لا يعرفون أنهم مطمئنون إلا بعد الإذن لهم بدخول الجنة، فالوصف مراد به الثناء والإيمان إلى وجه بناء الخبر، وتسير من وجه الخطاب عليهم بأنهم مطمئنون آمنون، ويجوز أن يكون للتعريف أو التخصيص بأن يجعل الله إليها ما في قلوبهم يعرفون أنهم مطمئنون.

والاطمئنان، مجاز في طيب النفس وعدم ترددها في مصيرها بالاعتقاد الصحيح فيهم حين أيقنوا في الدنيا بأن ما جاءت به الرسل حق فذلك اطمئنان في الدنيا ومن أثره اطمئنان يوم القيامة حين يرون مخائل الرضا والسعادة نحوهم ويرون ضد ذلك نحو أهل الشقاء»[2]، أما ابن الجوزي فذكر ثلاثة أقوال في معنى المطمئنة:

«أحدها: المؤمنة، قاله ابن عباس، وقال الزجَّاج: المطمئنة بالإيمان.

والثاني: الراضية بقضاء الله وقدره قاله مجاهد.

الثالث: الوفية بما وعد الله قاله قتادة»[3].

---

(1) سورة الفجر آية ٢٧– ٢٨

(2) ابن عاشور – تفسير التحرير والتنوير – ج ٣٠ ص ٣٤٢

(3) ابن الجوزي – زاد المسير في علم التفسير – ج ٩ ص ١٢٣

وهذا الاطمئنان قد اطمأنت به نفوس الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فقد شهد القرآن الكريم، وشهدت بها السنة النبوية، كما شهد التاريخ بذلك، فقد ذكر الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾: ((قيل أنه عُني بذلك قلوب المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم))[1] .

ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية أنه لما قتل جعفر بن أبي طالب، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ويقول:

أقسمت يا نفسُ لتنزلَنـــــه * لَتنـــزلنَّ أو لتُكرهنَّـــــــه
إن أجلبَ الناسُ وشدوا الرنَّة * ما لي أُراك تكرهين الجنّـــة
قد طال ما قـــد كنت مطمئنة * هل أنت إلا نطفة في شنّـــة

وقال أيضاً:

يا نفسُ إن لا تُقتلي تموتي * هذا حمام الموت قد صليـــــت
ومـــا تمنَّيت فقد أُعطيت * إن تفعلي فعلّهما هُـــديـــت[2]

هذه صورة أنموذجية لنماذج حية كثيرة تفسر مدى ما وصلت إليه نفوس الصحابة من كمال الإيمان والاطمئنان، أنهم يخاطبونها ويحثونها على عدم التردد في التضحية في سبيل الله، وهذا الاطمئنان لم يصل إليه الصحابة من فراغ، وإنما جاء نتيجة جهود وأعمال بذلوها حتى اطمأنت نفوسهم ونتيجة طبيعية لتربية إلهية ونبوية.

دلائل الاطمئنان:

(1) الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن – ج ٣ ص ٢٤٥
(2) ابن كثير – البداية والنهاية – ج ٣ ص٢٤٥

للطمأنينة دلائل وعلامات كثيرة من ذلك:

١- الرضا والتسليم التامين لله رب العالمين:

إن أساس الاطمئنان الإيمان بالله تعالى، ودليله الرضا والتسليم به، فعن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً»[1]، قال المباركفوري في شرح الحديث: ((قوله (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله) قال صاحب التحرير: معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم اطلب معه غيره. فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى ولم يسع في غير طريق الإسلام ولم يسلك إلا بما يوافق شريعة محمد ﷺ، ولا شك في أن من كانت هذه صفته فقد خالطت حلاوة الإيمان قلبه وذاق طعمه.

وقال القاضي عياض: معنى الحديث صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه، لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه، لأن من رضي أمراً سهل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له))[2].

وقد سجل التاريخ نماذج من هذا الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فهذا خالد بن سعيد بن العاص ﷺ يُسلمُ ويضربه أبوه بسوط في يده حتى يكسرها ويمنع عنه القوت فيقول له خالد ﷺ رضاءً بالله وبدينه: ((إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه))[3] .

(1) المباركفوري – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي – ج٧ ص ٣٧٣

(2) المرجع السابق

(3) الكاندهلوي – حياة الصحابة – ج ١ ص ٧٣٠

ذكر ابن كثير عن ابن اسحق قوله: «وحدثني حكيم بن جُبيرعن سعيد ابن جُبير قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به ترك دينهم؟ قال: نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرُّ الذي به، حتى يعيطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهان من دون الله؟ فيقول: نعم ! افتداءً منهم بما يبلغون من جهدهم. قلت: وفي مثل هذا أنزل الله تعالى ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أُكره وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان ولكن مّن شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضبٌ مّن الله ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾[1]»[2].

فهؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليم قد رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا فاطمأنت نفوسهم وتحملوا في سبيل الله كل أنواع الأذى والضرب.

٢– محبة الله ورسوله والمؤمنين:

وهذا دليل آخر على الاطمئنان الذي يشعر به الإنسان المسلم، فمع الرضا والتسليم التامين لله رب العالمين يشعر المسلم بمحبة تامة لله ولرسوله محمد ﷺ وللمؤمنين، عن أنس بن مالك ﷺ «أن رسول الله ﷺ قال: ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»[3]، قال المباركفوري في شرح هذا الحديث: « (وجد بهن)

(1) سورة النحل آية ١٠٦

(2) ابن كثير – السيرة النبوية – ج ١ ص ٤٩٥

(3) المباركفوري – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي – ج ٧ ص ٣٧٣

أي بسبب وجودهن طَعم الإيمان بفتح الطاء أي لذاته، وفي رواية لمسلم: حلاوة الإيمان، قال العلماء حلاوة الإيمان استلذاذه الطاعات وتحمله المشاق في رضى الله ورسوله، وإيثار ذلك على عرض الدنيا ومحبة الله سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته، كذا محبة رسول الله ﷺ. قال القاضي عياض هذا الحديث بمعنى حديث: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً إلخ، وذلك أنه لا تصح محبة الله تعالى ورسوله حقيقة وحب الآدمي في الله ورسوله ﷺ وكراهته الرجوع في الكفر إلا لمن قوي بالإيمان يقينه، واطمأنت به نفسه، وانشرح له صدره، وخالط لحمه ودمه، وهذا هو الذي وجد حلاوته. قال: والحب في الله من ثمرات حب الله وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها. وقد يستلذ بعقله المعاني الباطنة كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقاً، وقد يكون لإحسانه إليه ودفعه المضار والمكاره عنه، وهذه المعاني كلها موجودة في النبي ﷺ لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم»[1] ولهذا كان حب الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ما يفوق الوصف، ويعجز البيان عن وصفه، وحسبك أن الصحابة قدَّموا الغالي والنفيس، فقاتلوا آبائهم وأبنائهم، وعرضوا أنفسهم للموت وكل ذلك في حب الله وحب رسوله ﷺ الذي اطمأنت به نفوسهم، فهذه امرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه

(1) المرجع السابق

حتى أنظر إليه، قال: فأشير إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[١]، وفي كتب السنة والسيرة النبوية الكثير من صور الفداء والتضحية في سبيل الله وحب رسول الله ﷺ.

٣- النفس الأمَّارة:

قال الله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وما أُبرّئ نفسي إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفورٌ رّحيمٌ﴾[٢] قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: « (إن النفس لأمارة بالسوء) أي أن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها، وكفّها عن ذلك (إلا من رحم ربي) أي إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء، أو إلى وقت رحمة ربي وعصمته لها، قيل الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمّارة بالسوء»[٣] وقد ذكر ابن قيم الجوزية أن النفس تكون واحدة، ولكن تختلف النفوس بحسب الحال الذي تكون عليه، فهي نفس أمّارة أو نفس لوّامة أو نفس مطمئنة[٤]. «وأما النفس الأمّارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها، فهو يعيدها ويُمنّيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ويطيل في الأمل ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها، فمنه يدخل عليها كل مكروه، فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه وقد

(1) ابن كثير – السيرة النبوية – ج ٣ ص ٩٣

(2) سورة يوسف آية ٥٣

(3) الشوكاني – فتح القدير – ج ٣ ص ٣٥

(4) ابن قيم الجوزية – الروح – ص٣٠٣

علم ذلك إخوانه من شياطين الإنس فلا يستطيعون على الصور الممنوعة منهم أبلغ من هواهم وإرادتهم، فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجدهم ما تحبه وتهواه، ثم طلبه بجهدهم تحصيله فاصطادوا تلك الصور، فإذا فَتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه»[1] ولا شك أن الهوى والنفس الأمَّارة علاقة وطيدة، فما من شر للنفس إلا وللهوى دور كبير في ذلك، فالهوى محرك ودافع قوي للنفس الأمَّارة قال تعالى: ﴿إن يتّبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى﴾[2] وقال تعالى: ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علمٍ فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾[3] فالقرآن الكريم يشير في كثير من المواقع ويؤكد على أن الهوى دافع شر وعامل سوء للنفس، ●وقد جعل بعض الباحثين مراتب النفس ثلاثة، فقالوا ما نصه: «ولذا فمراتب النفس في الإسلام ثلاثة مراتب هي:

١– مرتبة الأمر بالسوء (النفس الأمَّارة)

٢– مرتبة اللوم (النفس اللوَّامة "

٣– مرتبة الطمأنينة (النفس المطمئنة) »[4] .

وفي الحقيقة إن هذه المراتب لا تستند إلى دليل، كما أن الإنسان في الأصل أنه مجبول ومفطور على الخير، وأن الشر هو الطارئ عليه، عن عياض ابن حمار المُجاشعي: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يوم هذا. كل مالٍ نحلته عبداً حلال. وإني

(1) المرجع السابق ص ٣٠٤

(2) سورة النجم آية ٢٣

(3) سورة الروم آية ٢٩

(●) وقد خصص الباحث مبحثاً خاصاً عن الهوى في الفصل القادم بمشيئة الله تعالى .

(4) علي الزهراني – النمو الإنساني ومراحله في المنهج الإسلامي – ص ٢٧

خلقت عبادي حنفاء كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم. وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم. وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سُلطاناً»[١] قال النووي: « (حنفاء كلهم) أي مسلمين، وقيل طاهرين من المعاصي. وقيلا: مستقيمين منيبين لقبول الهداية (فاجتالتهم) هكذا هو في نسخ بلادنا: فاجتالتهم. وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين. أي استخفوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل. وقال شمر: واجتال الرجل السيئ ذهب به. واجتال أموالهم ساقها وذهب بها»[٢] .

فهذا الحديث يؤكد أن أصل الإنسان أنه مجبول على الخير والتوحيد ثم انحرفت، فبناء على هذا الحديث تعتبر الخيرة والمطمئنة في المرتبة الأولى.

وفي رأي الباحث إن النفس المطمئنة والنفس اللوّامة والنفس الأمّارة كلها خصائص للنفس قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾[٣] كما أن من خصائص النفس الغفلة والنسيانً قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالّذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[٤] وهناك الكثير من الخصائص التي يصعب ذكرها جميعا في هذا المبحث، غير أن كل صفة خير للنفس فهي نابعة من النفس اللوّامة والنفس المطمئنة، وكل شر للنفس يعود للنفس الأمارة بالسوء كما ذكرنا في أقوال العلماء.

---

(1) مسلم – صحيح مسلم – ج ٣ ص ٢١٩٧ (باب الصفات التي يعرف بها أهل الدنيا أهل الجنة وأهل النار)

(2) المرجع السابق

(3) سورة الشمس آية ٧ ــ٨

(4) سورة الحشر آية ١٩

الفصل الثاني:

ركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس

ومما سبق ذكره في خصائص النفس في القرآن الكريم والسنة النبوية يمكن القول أن أسس وركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس تختلف كثيراً عن المناهج الأخرى، ولقد كان لهذا المنهج تأثيره الواضح في حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فقد عاش الصحابة رضوان الله تعالى عليهم (فترة ليست بالقصيرة) حياةً مليئة بكل أشكال الجاهلية، وخير وصف لتلك الحياة ما ذكره جعفر ابن أبي طالب مخاطباً ملك الحبشة، حيث يقول: «أيها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه وآمنا به، وأتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا»[1].

إن هذا الوصف الوجيز والبليغ لحالة الناس قبل الإسلام وبعده، يبن بوضوح الجهد الكبير الذي بذله الصحابة رضوان الله تعالى عليهم في التغلب

(1) ابن هشام – السيرة النبوية – ج ١ ص ٣٥٩– ٣٦٠

على كل هذه الصفات النفسية السيئة التي كانت عليها قبل الإسلام، ثم التحول بها إلى النفس المطمئنة الخيرة، والتي فطرها عليه، كما أخبر الرسول ﷺ بذلك، ولبيان حجم هذا الجهد الكبير الذي بذل، نعلم أن الولايات المتحدة الأمريكية دفعت الملايين من الدولارات في محاربة شرب الخمر فلم تنجح، في حين إن الإسلام بآية واحدة في كتاب الله أريقت براميل الخمر حتى سالت في سكك المدينة.

وهذا مما يؤكد قوة وأفضلية منهج التربية الإسلامية في تربية النفس، وقد اعتمد هذا المنهج على مجموعة من الركائز من أهمها:

● الركيزة الأولى: صدق الإيمان؟

الإيمان بالله تعالى هو الركيزة الأولى لمنهج التربية الإسلامية في تربية النفس، قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدّين قد تّبيّن الرّشد من الغيّ فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليمٌ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون﴾[2] جاء في تفسير أبي السعود: « (أن لا تخافوا) ما تقدمون عليه فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار وقيل المراد نهيهم عن الغموم على الإطلاق والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبداً»[3].

ولا شك أن هذه البشارة والطمأنينة التي يعيشها المؤمن هي بفضل

(1) سورة البقرة آية ٢٥٦

(2) سورة فصلت آية ٣٠

(3) محمد العمادي – تفسير أبي السعود – ج ٨ ص ١٣

الصدق في الإيمان، والاستقامة على المنهج الذي أمرنا الله به.

أثر صدق الإيمان على النفس:

لا شك أن للصدق أهمية بالغة في حياة الإنسان، إلا أن صدق الإيمان له أهمية أكبر في التأثير على النفس، يقول ابن القيم في وصف منْزلة الصدق وأهميته: «وهي منْزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لَمْ يَسرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضعَ على شيء إلا قطعه. ولا واجَه باطلا إلا أرداه وصرعه. مَنْ صال به لم ترد صولته. ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحمل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية (النبوة) التي هي أرفع درجات العالمين»[1] .

ومن لوازم صدق الإيمان بالله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدًا ﴾[2] وفي حديث جبريل الطويل: «قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[3].

أما عن آثار أركان الإيمان على النفس، فلا شك أن كل ركن من هذه

(1) ابن القيم – مدارج السالكين – ج ٢ ص ٢٧٩

(2) سورة النساء آية ١٣٦

(3) مسلم – صحيح مسلم – (كتاب البيوع) ج١ ص ٣٨

الأركان لها الكثير من التأثيرات الإيجابية على النفس والتي تحتاج إلى دراسات خاصة، ولقد بينا سابقاً بعضاً من هذه التأثيرات، إلا أنه مما ينبغي الإشارة إلى والتأكيد عليه أن هذا التحول في حياة الصحابة من محض الكفر والفسوق والعصيان، إلى محض الإيمان والتقوى، والصلاح وبذل النفس والمال والأهل والولد في سبيل الله لم يكن ليحدث لولا صدق الإيمان بهذه الأركان. ذكر ابن كثير عن عائشة أنها قالت: «يا رسول الله ﴿والذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو الذي يخاف الله؟ قال: لا يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزَّ وجل»، وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول به بنحوه وقال: «لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم»[1] وهذا الذي كان عليه حال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

ولقد ضرب الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أروع الأمثلة في صدق الإيمان بالله تعالى، فلم يكن إيمانهم ودخولهم الإسلام بسبب مغانم، أو الحصول على مكاسب دنيوية، وإنما كان الباعث هو صدق الإيمان بهذا الدين وبكل ما جاء به الرسول ﷺ، وبلغ قوة وصدق إيمان الصحابة أن وقفوا أمام المشركين يعلنون إسلامهم دون أدنى مبالاة لما سيواجهنه من متاعب وأذى، نقل محمد عرجون أمثلة عدة تبين قوة وصدق إيمان الصحابة، فمن ذلك قصة أبي ذر ﷺ حينما أسلم «فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري فقال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فثار القوم

(1) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٣ ص ٤٢٧

فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه، فقال: ويلكم: ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم على الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوا وثاروا إليه، فأكب عليه العباس فأنقذه»[1] كما نقل المؤلف قصة عبد الله بن مسعود ﷺ، وهي قصة لا تختلف عن قصة أبي ذر ﷺ إذ «اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنَّا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال دعوني، فإن الله سيمنعني، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته ﴿الرحمن علم القرآن﴾ ثم استقبلها يقرؤها، فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم معبد؟ ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ﷺ فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثر في وجهه، فقالوا: هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون»[2] وفي قصص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الكثير من الأمثلة على صدق إيمانهم، فسيدنا بلال ﷺ يُوضع في الشمس المحرقة، ويُوضع على صدره صخرة كبيرة حتى فيرفض، وعمار بن ياسر وأهل يُذبون في سبيل هذا الدين فيصبرون، وخبّاب بن الأرت سلقوه بالنار فما رجع عن دينه وما كفر[3] .

(1) محمد عرجون – محمد رسول ﷺ – ج ١ ص ٦٠٦

(2) المرجع السابق

(3) الكاندهلوي – حياة الصحابة – ج ١ ص ٢٨٨– ٢٩٢

ولا يقف أثر صدق إيمان الصحابة عند حدود الصبر على الأذى بل تعدى ذلك إلى جميع شؤون حياتهم، فمنذ دخولهم هذا الدين وإلى أن بلّغوا الرسالة وأدوا الأمانة وماتوا على ذلك وحياتهم كلّها تؤكد صدق إيمانهم، ذكر ابن الأثير أن عامر بن عبد قيس جاء ببعض الغنائم إلى سعد بن أبي وقاص فقال بعض الجند: ((ما رأينا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: والله لولا الله ما أتيتكم به؟))[1] هكذا تكون النفوس المؤمنة الصادقة في إيمانها، فرغم الفقر الشديد الذي كان عليه كثير من الصحابة وشدة الحال إلا أن نفوسهم المؤمنة الصادقة ترفض أن يمدّ أحدهم يده إلى ملك الغير. وقال سعد: ((والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت أنهم على فضل أهل بدر.. وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبرجده: إن قوماً أدوا هذا لذو أمانة فقال علي: إنك عففت فعفت الرعية))[2] .

ويمكن تلخيص آثار صدق الإيمان على النفس في النقاط التالية[3]:

١– تحرر النفس من سيطرة الغير، وذلك أن الإيمان يقتضي الإقرار بأن الله هو المحي، المميت، الخافض الرافع. فالذي أعاق البشرية عن النهوض، وحال بينها وبين الرقي هو الخضوع لاستبداد الغير، وبتقرير الإسلام لهذه الحقيقة قضى على هذا الاستبداد وأطلق حرية الإنسان من سيطرة المستبدين. ولهذا شرط الإسلام التحرر من كل الانتماءات غير الإسلامية كشرط للدخول في الإسلام قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدّين قد تّبيّن الرّشد من الغيّ فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن

(1) ابن الأثير – الكامل في التأريخ – ج ٢ ص ٣٦٠

(2) المرجع السابق

(3) سيد سابق – العقائد الإسلامية – ص ٨٥– ٩٠ بتصرف

بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليمٌ﴾[1] وقد كان لهذا التحرر من عبودية غير الله أثره الواضح في سلوكيات الصحابة وفي صدق إيمانهم وإخلاصهم، وقد شهد القرآن الكريم بذلك فقال الله تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مّمّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[2].

إن النفس التي تخرج من ديارها وأموالها، والنفس التي تقسم ممتلكاته وتعطيها للغير، وليس لهم من دافع القرابة أو العُصبة من شيء، حتى إنهم يعرضون زوجاتهم على أصحابهم كي يختاروا هم زوجاتهم بأنفسهم، لا شك أن من يقوم بمثل هذه الأعمال لا يتطرق الشك في صدق إيمانهم، فهم كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿أولئك هم الصادقون، وأولئك هم المفلحون﴾ ومن أصدق من الله قيلا.

٢- الإيمان يبعث في النفس روح الشجاعة والإقدام، واحتقار الموت والرغبة في الاستشهاد من أجل الحق. فالمؤمن يعلم بأن الأعمار بيدي الله، وأنه لا ينقص بالإقدام، ولا يزيد بالإحجام، فالمؤمن يؤمن بقول الله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ كما يؤمن بقوله تعالى: ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون﴾ ولهذا رأينا إقدام الصحابة في الجهاد، وفي قتال الكافرين ما يؤكد هذه الحقيقة، وفي بذلهم أموالهم وأنفسهم وأبنائهم في سبيل الله ما يثبت لكل الناس أن الإيمان بالله تعالى أفضل وسيلة لبث روح الإقدام والشجاعة، واحتقار الموت،

(1) سورة البقرة آية ٢٥٦

(2) سورة الحشر آية ٨- ٩

والرغبة في الشهادة في سبيل الله تعالى.

٣- التخلص من الكثير من رذائل النفس كالبخل، والحرص، والطمع، والاتصاف بفضيلة الجود، والبذل، والسخاء، والأنفة، والعفة ذلك لأن الإيمان يقتضي الاعتقاد بأن الله هو الرزاق، الجواد، الكريم قال تعالى: ﴿ وما من دآبةٍ في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلٌ في كتاب مّبينٍ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿الله يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إنّ الله بكلّ شيءٍ عليمٌ﴾[٢].

٤- طمأنينة القلب وسكينة النفس:

إن من أهم الملحوظات التي نلاحظها في إسلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم شعورهم براحة القلب وطمأنينة النفس، رغم علمهم بما سيلاقونه من عذاب واضطهاد وبلاء بسبب إيمانهم، فهذا أبو بكر الصديق، وعمر، وبلال، وآل ياسر وخبيب وغيرهم يواجهون الضرب الشديد، والمقاطعة الشديدة من أهل مكة ومن شايعهم ومع ذلك يصبرون، ولا يشعرون بأي مرض نفسي، أو خلل في العقل، إنهم يعيشون بنور الله وبذكر الله قال تعالى: ﴿الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ هو الّذي أنزل السّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مّع إيمانهم ولله جنود السّماوات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا﴾[٤] يقول سيد سابق: ((وإذا اطمأن القلب، وسكنت النفس – شعر الإنسان ببرد الراحة، وحلاوة اليقين، واحتمال الأهوال بشجاعة، وثبت إزاء الخطوب مهما

(1) سورة هود آية ٦

(2) سورة العنكبوت آية ٦٢

(3) سورة الرعد آية ٢٨- ٢٩

(4) سورة الفتح آية ٤

اشتدت، ورأى أن يد الله ممدودة إليه، وأنه القادر على فتح الأبواب المغلقة، فلا يتسرب إليه اليأس إلى قلبه سبيلا))[1].

٥- الرفع من قوى الإنسان المعنوية، والربط المحكم بالله تعالى:

لا شك أن صدق الإيمان بالله تعالى من أقوى الأسباب التي تؤدي إلى زيادة قوى الإنسان المعنوية، وبذل كل القوى الجسمية، والمالية، والعقلية في سبيل الله، وهذا يسمو بالإنسان عن الماديات، ويرتفع به عن الشهوات، فيستنكر على لذائذ الدنيا، ويرى أن الخير والسعادة في النّزاهة والشرف، وتحقيق القيم الصالحة. ومن ثم يتجه المرء اتجاهاً تلقائياً لخير نفسه ولخير أمته، ولخير الناس جميعاً.

وهذا هو السر في اقتران العمل الصالح بجميع شعبه وفروعه بالإيمان إذ أنه الأصل الذي تصدر عنه وتتفرع قال تعالى: ﴿إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات يهديهم ربّهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النّعيم﴾[2].

٦- الحياة الطيبة :

وتتمثل هذه الحياة في ولاية الله للمؤمن وهدايته له، ونصره على أعدائه وحفظه مما يُبيَّت له، وأخذه به كلما عثر أو زلت به قدم، فضلاً عما يفيضه عليه من متاع مادي، يكون عوناً له على قطع مرحلة الحياة في يسر، قال الله تعالى: ﴿من عمل صالحًا مّن ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[3] وقال تعالى: ﴿وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم مّن بعد

(1) سيد سابق – العقائد الإسلامية – ص ٨٧

(2) سورة يونس آية ٩

(3) سورة النحل آية ٩٧

خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[1] ولقد صدق الله في وعد تبارك وتعالى فلم ينقضي نصف قرن حتى انتشرت دولة الإسلام ودانت العرب والعجم لهذا الدين، وكثر الخير في أيدي المسلمين، بعد أن فتح الله كنوز قيصر والفرس، وشعر الجميع بالأمان، وسارت الظعينة من العراق إلى مكة لا تخاف إلا الله.

● الركيزة الثانية: حسن الإتباع والإقتداء بالنبي ﷺ :

لقد كانت للتربية الإسلامية الربانية والنبوية أثرها الواضح في حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وفي حسن إتباعهم وإقتدائهم بنبيهم ﷺ، وطاعتهم وتنفيذهم لما أمرهم به الشارع الكريم، ذكر القرطبي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾: «فإنه لما أنزل هذا على النبي ﷺ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كُلفنَا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نُطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فانزل الله في أثرها الآية»[2] .

وبدراسة معنى الاتباع نجد أن الاتباع في اللغة بمعنى السير في الأثر، وتَبعت القوم تَبَعاً وتَباعة، إذا مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم، وتابَع بين الأمور متابعة وتباعاً: واتَرَ ووالَى، وتابعتُه على كذا متابعةً وتباعاً. والتّباع:

(1) سورة النور آية ٥٥

(2) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج ٣ ص ٤٢٧

الولاء، يقال تابع فلان بين الصلاة وبين القراءة إذا واصل بينهما[1].

وأما القدوة في اللغة الأسوة، ويقال تَقَدَّت به دابته: لزمت سنن الطريق[2].

فالاتباع والاقتداء في اللغة تشيران إلى السير والتزام الطريق وعدم الخروج عنه، وقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من أفضل من وطئت الأرض في اقتدائهم واتباعهم لما جاء النبي ﷺ والالتزام به وعدم الخروج ولو قيد أنملة. وقد كان هذا الاتباع والاقتداء نابعين من صدق إيمانهم بالله تعال، فقد ربُّوا أنفسهم وأخضعوها للالتزام بمنهج النبوة. فقد حذرهم الرسول ﷺ من الابتداع في الدين، فعن عائشة رضي الله عنها «قالت قال رسول الله ﷺ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» متفق عليه[3]. وفي حديث آخر عن جابر ﷺ «قال: كان رسول الله ﷺ، إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتَّى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: بُعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه السبابة، والوسطى ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[4] .

وعن العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها الدموع ووجلت مناه القلوب فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فبماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشيٌّ فإنه من يعش منكم ير اختلافاً كثيراً، وإياكم

(1) ابن منظور – لسان العرب – ج٨ ص ٢٨، (تبع)

(2) المرجع السابق ج١٥ ص ١٧٢ (قدا)

(3) النووي – رياض الصالحين – تحقيق علي عبد الحميد، ص ٧٩

(4) المرجع السابق ص ٧٩

ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»[١] وكانوا يُحذرون من الابتداع، فهذا حذيفة بن اليمان يقول: « اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم، فلعمري لئن اتبعتموه فلقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»[٢] .

لا شك أن هذه التحذيرات من الصحابة من خطر البدعة يؤكد أهمية التزام المؤمن بالكتاب والسنة، وترك البدع بجميع أشكالها وألوانها.

تحت عنوان (في ذم البدع وسؤ منقلب أصحابها) ذكر الشاطبي عدة أسباب تدعو إلى التمسك بالسنة وذم البدعة ومن هذه الأسباب:

١– أنه لولا أن منَّ الله على الخلق ببعثة الأنبياء لم تستقم لهم حياة، ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم الدنيوية والأخروية.

٢– أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان.

٣– أن المبتدع معاند للشرع ومشاق له.

٤– أن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشرع.

٥– أنه إتباع للهوى، لأن العقل إذا لم يكن متَّبعاً للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة، ألا ترى قول الله تعالى: ﴿يا داوود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين النّاس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يوم الحساب﴾[٣] فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده، وهو الحق والهوى، وعزل العقل مجرداً إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك، وقال ﴿ولا تطع

(1) الألباني – صحيح سنن الترمذي (باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة) ج ٢ ص ٣٤١

(2) ابن عبد البر – جامع بيان العلم وفضله – ج ٢ ص ٩٧

(3) سورة ص آية ٢٦

والهوى، وعزل العقل مجرداً إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك، وقال ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾ فجعل الأمر محصوراً بين أمرين: اتباع الذكر، واتباع الهوى[1]. والهوى من الأسباب المؤثرة على النفس، ولهذا كانت حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قائمة على التمسك التام بالسنة، في صحيح البخاري عن أبي سعيد: «أن رهطاً من أصحاب رسول الله ﷺ انطلقوا في سفرة سافروها حتى نزلوا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا بكم لعله يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ فسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فهل عند أحد منك شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لراق، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلقوا فجعل يتفل ويقرأ الحمد لله رب العالمين، حتى كأنـــما نُشط من عقال، فانطلق يمشي ما به قلبة، قال: فاوفـــوهم جُعلهم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقسموا فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتيّ رسول الله ﷺ فنذكر له الـــذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: ومـــا يُدريك أنها رُقية؟ أصبتم اقسموا واضربوا لي بسهم»[2] .

هكذا هي حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، التزام وتمسك بالسنة وعدم الخروج عليها، وعدم الإقدام على أي فعل ليس عندهم دليل حتى يسألوا رسول الله ﷺ، فيأذن لهم بالفعل أو تركه.

(1) الشاطبي – الاعتصام – تحقيق سليم الهلالي، ج١ ص ٦١ ــ٦٧ (بتصرف)

(2) البخاري – صحيح البخاري – ج ٧ ص ٢٥ (باب النفث في الرقية)

● الركيزة الثالثة: القيام بالعبادات المشروعة:

شرع الله للناس بعد الشهادتين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[٢] وفي السنة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»[٣] .

آثار العبادات على النفس:

حينما يُقرر الإسلام هذه العبادات على المؤمنين فإنه لا يرغب في تحميل الناس المشقة البدنية والمادية لذاتها، وإنما تصفية الروح وتهذيب النفس، يقول محمد البهي: «الإسلام لا يُعني بالشكل فيما يُكلف أتباعه، ولا يرمي إلى أداء عبادة في شكل رسوم أو في صورة عادة فقط، الإسلام يريد توجيهاً للروح، يريد استقامة للنفس، يريد صلاحاً وتهذيباً للفرد، يريد جماعة غير مفسدة ولا عابثة. لا يتفق أداء صلاة يتوجه فيها الإنسان إلى ربه مع إتيان للفواحش وقيام بالمنكر والمفسد، وكذلك لا ينسجم أداء صوم مع عبث في القول وباطل في العمل»[٤] .

---

(1) سورة الحج آية ٤١

(2) سورة آل عمران آية ٩٧

(3) النووي – رياض الصالحين – ص ٣٣٨

(4) محمد البهي – الإسلام في حياة المسلم – ص٣٣

إن الحديث عن آثار العبادات على النفس طويل جداً، ولهذا سيقتصر الحديث في هذا الموضوع على ذكر بعض الآثار لبعض العبادات، ففي الصلاة قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1] يقول ابن القيم في آثار الصلاة على الإنسان: ((وأما الصلاة فنشأتها في تفريح القلب وتقويته وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله وقربه والتنعم بذكره والابتهاج بمناجاته والوقوف بين يديه واستعمال جميع البدن وقُواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاوراتهم وانجذاب قُوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره وراحته من عدوه حالة الصلاة ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة. وأما القلوب العليلة فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة. فالصلاة من أبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد ومنورة القلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة))[2] .

إن من كان عنده مثل هذا الاعتقاد عن الصلاة لاشك أنه يكون حريصاً على أدائها على الوجه الذي تكون عليه الصلاة سبباً في منعه إتيان الفحشاء والمنكر، وسبباً أكبر في سعادته في يومه وليلته.

---

(1) سورة العنكبوت آية ٤٥

(2) ابن القيم – زاد المعاد في هدي خير العباد – ج ٤ ص ٢٠٩

ولهذا كانت للصلاة مكانة عظيمة في نفوس الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وحسبنا في هذا المقام ما جاء عن المسور بن مخرمة: ((قال: دخلت على عمر بن الخطاب ﷺ وهو مسجى فقلت: كيف ترونه؟ قالوا: كما ترى، قلت: أيقظوه بالصلاة، فإنكم لن توقظوه بشيء أفزع له من الصلاة فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، فقال ها الله إذاً ولا حق في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وإن جرحه ليثعب دماً))[١] هكذا كانت الصلاة في حياة الصحابة.

وأما الزكاة فإن الإنسان حينما يقوم بتأديتها على الوجه المشروع ((يحس باشتراكه في النشاط الاجتماعي ويشعر بأنه يؤدي للمجتمع نفعاً وبأنه عضو عامل في هذا المجتمع، وأنه يسعى دائماً لخدمته. فيدفعه ذلك إلى الانصهار مع الناس والابتعاد عن التعالي الذي هو من ويلات المجتمعات غير الإسلامية، وبالتقارب بين الغني والفقير بهذه الصورة تتوحد الإرادة وتتآلف القلوب، فينطلق المجتمع في بنائه وتقدمه من غير عقد ولا خوف. ويحل السلام في النفوس محل الحسد والحقد والضغينة. وفوق هذا فإن الغني المعطي يشعر براحة نفسية تزيل عنه حب المال وعبادته، وذلك الحب الذي يؤدي في أغلب الأحيان إلى أن يصبح مالك المال عبداً له، بدل أن يكون المال وسيلة لتحقيق مصالحه))[٢] .

وأما عن آثار الصوم على النفس، فليس المقصود فقط ((إشعار الأغنياء بحاجة الفقراء حين يحسون بمرارة الجوع والحرمان فحسب، وإنما المراد هو تطهير النفس وترقيتها، وتنقية الجسد من علائق كثيرة تتراكم عليه من تتابع الطعام كل يوم))[٣].

(1) الكاندهلوي – حياة الصحابة – ج ٣ ص ٩٤

(2) عبد الرشيد سالم – التربية الإسلامية وطرق تدريسها – ص ١٤٥

(3) المرجع السابق ١٥٩

وأما عن آثار الحج فيقول البهي: «والحج بهذا عبادة قصد بها الإسلام تأكيد الأخوة بين المسلمين، في وحدة القلوب، ووحدة الدعاء، ووحدة المظهر، والحج بهذا عبادة تنصهر فيها الفوارق بين أجناس المسلمين وقبائلهم ومواطنهم ولغاتهم وألوانهم وثقافتهم ومنازلهم الاجتماعية»[1] وصدق الله العظيم ﴿ وأذّن في النّاس بالحجّ يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍّ عميقٍ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللّه في أيّامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾[2] .

● الركيزة الرابعة: الالتزام بالذكر المشروع:

أمر الله سبحانه وتعالى بالذكر فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[3] ومدح الذاكرين ووصفهم بأنهم أولوا الألباب ومن صفاتهم ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النّار﴾[4].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم عز وجل – وهو أعلم منهم – ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمدحونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ

(1) محمد البهي – الإسلام في حياة المسلم – ص ٤٥

(2) سورة الحج آية ٢٧ – ٢٨

(3) سورة الأحزاب آية ٤١ – ٤٢

(4) سورة آل عمران آية ١٩١

لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً..» الحديث[١] .

وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأرضاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذَّهب والورق ومن أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله ! قال، ذكر الله . وقال معاذ ما عمل امرؤ بعمل أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله»[٢] .

آثار الذكر على النفس:

بينت الأدلة الصحيحة من القرآن الكريم والسنة النبوية آثار الذكر على الإنسان في مواقع كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٤]وفي السنة النبوية وردت آثار كثيرة تبين فضل الذكر وآثاره على النفس، وحسبنا في هذا المقام ما جاء عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيّ الميت»[٥] فهل هناك أسوأ حالةً من أن يُوصف الإنسان بأنه ميت وهو حي يسير على قدميه؟إن هذه الحالة قد وصفها كثير من التائبين من المسلمين في كثير من الكتب، فقد بينوا معاناتهم حينما كانوا يعيشون بدون ذكر الله، وكيف بذلوا الغالي والرخيص من أجل الحصول على ذرة من السعادة فما حصلوا إلا على مزيد

(1) البخاري – صحيح البخاري – ج ٧ ص ١٦٨ (باب فضل ذكر الله عز وجل)

(2) الألباني – صحيح ابن ما جه – ج ٢ ص ٣١٦ (باب فضل الذكر)

(3) سورة الزخرف آية ٣٦

(4) سورة الرعد آية ٢٨

(5) البخاري – صحيح البخاري – ج ٧ ص ١٦٨ (كتاب الدعوات)

من التعاسة والشقاء [1]. ذلك لأن الذكر كما قال ابن القيم: ((حياة القلب حقيقة، وهو قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد صار بمنْزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، فلا حياة للقلب إلا بذكر الله، ولهذا يقول ابن تيمية رحمه الله الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون السمك إذا فارق الماء))[2].

ولهذا كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من أكثر الناس ذكراً لله تعالى بعد رسول الله ﷺ، فعن علي بن أبي طالبﷺ أن النبي ﷺ «قال لي: أعطيك خمسة آلاف شاة أو أعلمك خمس كلمات فيهن صلاح دينك ودنياك؟ فقلت يا رسول الله خمسة آلاف شاة كثيرة ولكن علّمني، فقال: قل اللهم اغفر لي ذنبي ووسّع لي خلقي وطيب لي كسبي، وقنعني بما رزقتني، ولا تذهب قلبي إلى شيء صرفته عني»[3] حينما يفضل الإنسان خمس كلمات على خمسة آلاف شاة لا شك أن مثل هؤلاء يزنون الكلمات والأمور بموازين خاصة.

وباختصار يمكن إجمال فوائد الذكر فيما يلي:

– حرز لصاحبه من الشيطان .

– يجلُبُ لقلب الذّاكر الفرح والسرور والرّاحة، ويورث القلبَ السكون والطمأنينة .

– يحط الخطايا ويُذهبها، وينجي الذاكر من عذاب الله .

– يترتب عليه من العطاء والثواب والفضل ما لا يترتب على غيره من الأعمال.

– أنه غراس الجنة .

– أنه يكون نوراً للذاكر في الدنيا، ونوراً له في قبره، ونوراً له في معاده.

(1) انظر محمد المسند – العائدون إلى الله –

(2) عبد الرزاق البدر – فقه الأدعية والأذكار – ص ١٨

(3) الكندهلوي – حياة الصحابة – ج ٣ ص ١٨٠

– أنه يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله عليه وملائكته فقد أفلح كلّ الفلاح[١] .

● الركيزة الخامسة: الخوف والرجاء :

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن المؤمن يعيش بعقيدة الخوف والرجاء كما قال تعالى: ﴿ أولـئك الّذين يدعون يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيّهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إنّ عذاب ربّك كان محذورًا ﴾[٢]يقول ابن كثير: « (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فبالخوف ينكف عن المناهي وبالرجاء يكثر من الطاعات»[٣] ويقول ابن القيم أن الخوف «من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض عل كل أحد»[٤] .

آثار الخوف والرجاء على النفس:

في رسالة ماجستير عن الخوف والرجاء ذكر المؤلف الآثار الطيبة للخوف والرجاء في النقاط التالية[٥]:

١– البعد عن المعاصي والإقلاع عنها :

قال تعالى: ﴿ لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك إنّي أخاف اللّه ربّ العالمين ﴾[٦]وفي سنن الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قلما

(1) عبد الرزاق البدر – فقه الأدعية والأذكار –

(2) سورة الإسراء آية ٥٧

(3) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٣ ص ٥٢

(4) ابن القيم – مدارج السالكين – ج ١ ص ٥٤٨

(5) عبد الرحمن سلمان – الخوف والرجاء – رسالة ماجستير الجامعة الإسلامية ١٤١١ هـ

(6) سورة المائدة آية ٢٨

كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»[1] .

وفي حياة الصحابة نجد التطبيق المثالي لهذا الأثر، وخير مثال لذلك قصة تحريم الخمر ذكر ابن كثير في تفسيره عن أنس بن مالك قال: «بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة وأبي دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رءوسهم من خليط بسر وتمر فسمعت منادياً ينادي ألا إن الخمر قد حرَّمت قال فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يا أيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ »[2] .

٢- الأعمال الصالحة :

من الآثار الطيبة للخوف والرجاء المداومة على الأعمال الصالحة قال تعالى: ﴿في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة يخافون يومًا تتقلّب فيه القلوب والأبصار﴾[3] .

٣- النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة:

لا شك أن عاقبة الخوف من الله هو النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الّذين آمنوا وكانوا يتّقون لهم البشرى

(1) الترمذي – سنن الترمذي – ج ٥ ص ٥٢٨ (كتاب الدعوات)

(2) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٢ ص ٩٧

(3) سورة النور آية ٣٦

في الحياة الدّنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[١] وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل ودخان جهنم»[٢] وقد كان الصحابة من أشد الناس خشية لله بعد رسول الله ﷺ، ذكر أبو نعيم عن طارق بن شهاب: «قال: عاد خبّاب نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله، إخوانك تقدم عليهم غداً، قال: فبكى وقال: أما إنه ليس بأجورهم كلهم، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا»[٣] .

٤- خشوع القلب والانتفاع بالذكر:

قال تعالى: ﴿ إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شهيدٌ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ ولا يكونوا كالّذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾[٥] في باب البكاء من خشية الله عز وجل عن أبي هريرة ﷺ: «قال: سبعة يظلهم الله في ظله: رجل ذكر الله ففاضت عيناه»[٦] .

٦- طرد اليأس والقنوط :

ومن فوائد الخوف والرجاء طرد اليأس والقنوط، ورضى الرب تبارك، ودخول الجنة قال تعالى: ﴿ قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رّحمة الله

(1) سورة يونس آية ٦٢- ٦٣

(2) الترمذي – سنن الترمذي – ج ٤ ص ١٧١ (باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله)

(3) أبو نعيم – الحلية – ج ١ ص ١٤٤

(4) سورة ق آية ٣٧

(5) سورة الحديد آية ١٦

(6) ابن حجر العسقلاني – فتح الباريء – ج ١١ ص ٣١٢.

إنّ الله يغفر الذّنوب جميعًا إنّه هو الغفور الرّحيم﴾[1].

● الركيزة السادسة: التحلي بالصبر:

الصبر: الحبس والكف، ويقصد به حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

والصبر على ثلاثة أنواع صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله، فالأول: صبر العبد بربه لا بنفسه، قال تعالى: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾، أي إن لم يصبرك الله فلن تصبر، والثاني: أن يكون الباعث على الصبر هو محبة الله وابتغاء وجه الله، والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ومع أحكامه الدينية. صابراً نفسه معها، قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه[2].

وأما درجات الصبر فقد ذكر ابن القيم أنه على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: الصبر عن معصية الله خوفاً أو حياءً منه تبارك وتعالى، والدرجة الثانية: الصبر على الطاعة، بالمحافظة عليها دوماً، وبرعايتها إخلاصاً وبتحسينها علماً. والدرجة الثالثة: الصبر في البلاء، بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج وتهوين البلية بعدّ أيادي المنن وبذكر سوالف النعم[3] لا شك أن التغلب على الأمراض النفسية بجميع أشكالها، وألوانها يحتاج بالإضافة إلى الأسس والركائز السابقة إلى التحلي بالصبر، والصبر أساس كل شيء، ولا ريب أن تربية النفس وإرغامها على فعل أمور تخالف هواها يحتاج إلى جميع أنواع الصبر ودرجاته، وقد تعلم الصحابة رضوان الله تعالى من القرآن الكريم ومن صحبتهم للنبي ﷺ

(1) سورة الزمر آية ٥٣.

(2) ابن القيم – مدارج السالكين – ج٢ ص ١٦٢– ١٦٤ (بتصرف).

(3) المرجع السابق ص ١٧١ ــ١٧٤ (بتصرف)

الصبر بجميع أشكاله وألوانه، ودرجاته، فلقد أمر الله سبحانه وتعالى بالصبر في أكثر من آية قال تعالى: ﴿ يا أيها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا اللّه لعلّكم تفلحون ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل ﴾[2] وكان الرسول ﷺ يحث أصحابه على الصبر في جميع شؤون حياتهم عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كلّه له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[3] .

وكان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من أصبر الناس، وقد ترجموا ذلك في كثير من مواقع حياتهم، ففي مكة حينما تعرضوا لألوان العذاب وأصنافها، وفي جميع معاركهم الحربية حيث نجد التفوق العددي لخصومهم وقلة عددهم، ولكن بصبرهم وثباتهم نصرهم الله، وكانوا صادقين في استجابتهم لأمر الله ولأمر رسوله ﷺ، ففي معركة بدر وقف النبي ﷺ يسوي الصفوف وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بَخْ بَخْ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء !ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل وهو يقول:

رَكضاً إلى الله بغـــير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عُرضة النَّفاذ

(1) سورة آل عمران آية ٢٠٠

(2) سورة الأحقاف آية ٣٥

(3) مسلم – صحيح مسلم – ج ٣ ص ٢٢٩٥ (باب المؤمن أمره كله خير)

غير التُقى والبر والرشاد[1].

إن هذه الصورة المعبرة عن سرعة الاستجابة لأمر الرسول ﷺ أوضح دليل على عظمة تلك النفوس الصابرة المؤمنة المحتسبة، ولأهمية الصبر في حياة الصحابة يقول عمر بن الخطاب ﷺ: ((خير عيش أدركناه بالصبر)) يقول ابن القيم تعليقاً على ذلك: ((وإذا تأملت النقصان الذي يُذمُّ صاحبه عليه، ويُخل تحت قُدرته، رأيته كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة والجود والإيثار كلُّه صبر ساعة.

فالصبر طلسم على كنْز العُلى مَن حلَّ ذا الطلسم فاز بكنْزه

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حُفظت صحة القُلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفارق الأكبر والترياق الأعظم ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله، فإن الله مع الصابرين ومحبته لهم، وأنه خير لأهله ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾))[2] ولهذه الأسباب جعل الباحث الصبر ركيزة أساسية في تربية النفس من دون الصفات الأخلاقية الأخرى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصبر غير الكبت، وهو مغاير تماماً عن الجزع ويختلف عنه، فالكابت كما يقول الشرقاوي: ((يحمل نفساً مريضة يخاف أن تفضحه، وتكشف عن نزعاته الشهوية، وأهوائه المتقلبة وربما وقع في العلل والأمراض وما يسمى بالأمراض الهستيرية كنتيجة لكبت دوافعه العدوانية أو الشهوانية. كما أن الكابت لا يتحمل شيئاً لأنه كالوتر المشدود، مرتاباً، قلقاً، خائفاً يحيا في الهم والغم متشائماً، يرى الحياة بمنظار شديد السواد. والكابت

(1) الطبري – تاريخ الطبري – ج ٢ ص ٤٤٨

(2) ابن القيم – زاد المعاد – ج ٤ ص ٣٣٣

يهرب من النّزاعات والصراعات، فإذا وجد باباً لاستظهارها انفجرت المكبوتات في ضروب من الأفعال الشاذة، والنشاط التدميري والسلوك الانحرافي. أما الصابر فليس بمتوجس أو خائف، أو كابت لطاقة شهوية تريد الانطلاق بدون وعي إذا وجدت مثيراً خارجياً، أو ظروفاً مناسبة إنما الصابر واع لما يفعل، يفطن لسيره، عارف بثمراته، يتحمل في سبيل الله ثقة به ورجاء فيه، قوي بالله، ومن الله، وفي الله ولله، يتحمل في جلد.

الصابر ليس مستدلاً ولا مكبوتاً ولا جزعاً، إنما هو متوكل على الله، راضي بمال يأتيه من خير وشر»[1].

● الركيزة السابعة: الالتزام بالأخلاق الإسلامية :

إن من كمال منهج التربية الإسلامية وشمولها وربانيتها تكامل أخلاقها مع عقيدتها وعباداتها وسائر تشريعاتها الإسلامية.

فالإسلام كما أنه دين عقيدة وعبادة، فهو دين أخلاق ومُثُل، وتمثّل الأخلاق في منهج التربية الإسلامية ركيزة أساسية في تربية النفس.

ذكر ابن قيم الجوزية في الفوائد: «جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه: فتقوى الله توجب له محبة الله: وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته»[2].

والخُلُق كما جاء في لسان العرب (الدّين والطبع والسجية، وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنْزلة الخَلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة. والخُلق:

(1) حسن الشرقاوي – نحو علم نفس إسلامي – ص ٣٦١– ٣٦٢

(2) ابن قيم الجوزية – الفوائد – ص ٥٤

المرءة، ويقال: فلان خَليق لكذا أي جدير به، وقد خَلُق لذلك: كأنه مما يُقدّر فيه ذاك وتُرى فيه مَخايله»[1] وفي المفردات: «الخَلْقُ والخُلقُ في الأصل واحد كالشّرب والشُّرْب والصّرم والصُّرْم لكن خُصَّ الخَلقُ بالهيئات والأشكال والصُّور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[2] .

ونقل ابن حجر عن القرطبي تعريف الخُلق بأنه: «أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره، وهي محمودة ومذمومة، فالمحمودة على الإجمال أن تكون مع غيرك على نفسك فتنصف منها ولا تنصف لها، وعلى التفصيل العفو والحلم والجود والصبر وتحمل الأذى والرحمة والشفقة وقضاء الحوائج والتوادد ولين الجانب ونحو ذلك، والمذمومة منها ضد ذلك»[3] .

ومما سبق يتضح العلاقة الوثيقة بين الخُلق والنفس، فالخُلق هي الصورة الحقيقية للنفس، وتشمل هذه الصورة سجية الإنسان وطبعه ومروءته وأوصافه بصورة عامة، وهذا مما يؤكد أهمية الجانب الأخلاقي في تربية النفس، وأنه لا يمكن تربية النفس والعناية بها بدون الاهتمام بالأخلاق.

ولهذا اهتمت التربية الإسلامية بهذا الجانب وأولت بها عناية خاصة، وتتميز التربية الأخلاقية في منهج التربية الإسلامية بمزايا عدة من أهمها:

١– ارتباط الأخلاق بالإيمان بالله تعالى:

إن ارتباط الخُلق بطبيعة الإنسان وسجيته جعل بعض الفلاسفة يعتقدون أن هذه الأخلاق هبة إلهية، «ولا يمكن أن تكون ثمرة الدراسة، أو تكون نتيجة

(1) ابن منظور – لسان العرب – ج ١٠ ص ٨٥– ٩٢ بتصرف (خلق)

(2) الراغب الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – ص ١٥٨

(3) ابن حجر – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ج ١٠ ص ٤٥٦

تعليم، ولهذا لم ينقلها كبار الناس إلى أولادهم»[١] إن هذا الفهم الخاطئ للأخلاق للأسف الشديد موجود في مجتمعاتنا الإسلامية، فكثير من الناس يعتقدون أن الأخلاق سجية لا يمكن تغييرها أو تبديلها، فالإنسان السيئ الأخلاق يبقى كذلك إلى موته أو ضعفه فالأخلاق كما أنها سجية الإنسان وطبيعته البشرية، إلا أنها تتغير وتتبدل بفعل التربية والمحاورة، واستخدام الحجج والبراهين الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية والآثار الواردة عن الصحابة وعلماء الأمة، واستخدام القصص وضرب الأمثال وأخذ العبرة من الأحداث والكوارث[٢] .

إن منهج التربية الإسلامية في تربية الأخلاق يقوم على ربط الخُلق بالإيمان بالله تعالى، وهذا من أهم ما تمتاز به تربية الأخلاق في الإسلام، قال تعالى: ﴿وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النّفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى﴾[٣] وفي السنة النبوية نجد أن الرسول ﷺ كثيراً ما يربط بين الأخلاق والإيمان، فعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء»[٤] .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون

(1) عبد الرحمن بدوي – الأخلاق النظرية – ص ١٥٨

(2) خالد الحازمي – أصول التربية الإسلامية – ص ١٦٨

(3) سورة النازعات – آية ٤٠– ٤١

(4) الألباني – صحيح سنن الترمذي – ج ٢ ص١٩٤ (باب ما جاء في حسن الخلق)

والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «قال: رسول الله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[2] .

إن هذا الربط بين الأخلاق وصدق الإيمان بالله تعالى ميزة انفردت بها الأمة الإسلامية، وعلى هذا الأساس انفردت أيضاً بأخلاقها على سائر الأمم في حروبها وسلمها، وعلى جميع المستويات الاجتماعية، من أدنى الناس إلى أعلاهم، فهذا عمر ﷺ يدخل عليه رجل ويقول له: «هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزل، ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى همَّ أن يُوقع به، فقال الحر بن قيس ﷺ: يا أمير إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وأن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل»[3]، كما أن حروبهم ودخول كثير من الأمم في هذا الدين أكبر شاهد على حسن أخلاق المؤمنين وصدقهم في جميع تعاملهم.

٢– شمول الأخلاق الإسلامية وتكاملها :

ومن مزايا الأخلاق في منهج التربية الإسلامية شمولها لجميع الكائنات «فهي تحدد المسؤولية الأخلاقية للفرد تجاه ربه ونفسه وأهله وذوي قرباه وجيرانه وأعضاء الجماعة التي يعيش فيها، وتجاه عمارة الأرض وحسن استثمار

(1) المرجع السابق ص ١٩٦ (باب ما جاء في معالي الأخلاق)

(2)البخاري – صحيح البخاري – ج ٧ ص ٧٨ (باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره).

(3) الكندهلوي – حياة الصحابة – ج ٢ ص ٥٤٣

ما عليها من حيوان ونبات وجماد، وما فيها من كنوز وخبايا وغيرها.

وهي تحدد المسؤولية الأخلاقية للأسرة تجاه أبنائها وأعضائها وكيفية رعايتهم وتربيتهم وتنشئتهم، وعلاقتها مع بقية الأسر في الحي السكني، وفي هذا المحيط الاجتماعي العام، وهي تحدد المسؤولية الأخلاقية للجماعة تجاه أفرادها من حيث توجيههم وإرشادهم، وتنيقة بيئتهم من الأمراض والشوائب والعلل الخلقية والاجتماعية، وحفظ عقيدتهم الدينية، ونظامهم الأخلاقي»[١].

٣- ثبات الأخلاق الإسلامية :

ومن مزايا الأخلاق في منهج التربية الإسلامية أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الأشخاص، فهذه الأخلاق الإسلامية ثابتة منذ ظهور الإسلام وإلى أن تقوم الساعة، يقول يالجن: «إن القيم الإسلامية ليست نسبية تتغير من فرد إلى فرد ومن مجتمع إلى مجتمع آخر، ثم من زمن إلى من زمن إلى زمن، بل هي قيم تزداد ثباتاً وضرورة كلما مرت الإنسانية بتجارب في حياتها الأرضية، بل لا يمكن بأي حال من الأحوال وجود حياة اجتماعية متزنة ومستقرة وسعيدة إذا لم تقم هذه الحياة على أسس هذه الأخلاق التي جاء بها الإسلام، والتي تتفق مع جميع الأخلاقيات الصالحة السابقة واللاحقة»[٢] .

آثار التربية الخُلقية على النفس:

إن الآثار المترتبة على بناء الجوانب الخلقية لا يقف عند حدود النفس الإنسانية فقط، بل يتعدى ذلك إلى جميع الكائنات الحية والجامدة، وحتى هذا الكون بكل ما فيه يتأثر بما تثمر عنه التربية الخلقية.

(1) الزنتاني – أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية – ص ٧٣٠

(2) مقداد يالجن – جوانب التربية – ص ٢٨٨

فالتربية الخلقية ركيزة أساسية «لتحقيق السعادة في الحياة الاجتماعية، ذلك أنه إذا زالت هذه التربية – بحكم واجبها – جميع الشرور والرذائل من النفوس وغرست بعد ذلك الروح الإنسانية الخيرة، يؤدي الأمر عندئذ إلى انتشار الأمن والثقة والمحبة والمودة واحترام الحقوق والمشاعر الأدبية والإنسانية لكل فرد في الحياة الاجتماعية، ثم تسود روح الأخوة وروح التعاون في سبيل الخير والمصلحة العامة، ومن ثم يؤدي الأمر إلى تعميم الخير وزوال الشرور وهذا شرط أساسي لتحقيق السعادة الاجتماعية، ولا يمكن تحقيق هذه السعادة بمجرد التقدم في الحياة المادية، وأكبر دليل واقعي ملموس على ذلك حياة المجتمعات المتقدمة من الناحية المادية والمتأخرة من الناحية الأخلاقية التي أدى الانحلال الأخلاقي فيها إلى مفاسد وجرائم مختلفة ونتجت من جراء ذلك الأمراض النفسية والاجتماعية التي جعلت الناس يعيشون في ظلام من القلق والاضطراب والخوف والكابوس»[1] .

وأما عن تأثر الكون بفساد الإنسان فحسبنا بياناً في ذلك قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون﴾[2] يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (أي بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي. وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة)[3] ولا يقف حدود آثار المعاصي عند الرزوع والثمار، بل إن كل ما يحدث في الكون من زلازل وريح مدمرة وإغراق الأرض

(1) المرجع السابق ص ٢٨٣

(2) سورة الروم آية ٤١

(3) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٣ ص ٤٤٥

والخسف وحلول الهزائم الحربية وزوال النعم الكثيرة ... كل ذلك بسبب المعاصي قال الله تعالى ﴿فكلًّا أخذنا بذنبه فمنهم مّن أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم مّن أخذته الصّيحة ومنهم مّن خسفنا به الأرض ومنهم مّن أغرقنا وما كان اللّه ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿وضرب اللّه مثلاً قريةً كانت آمنةً مّطمئنّةً يأتيها رزقها رغدًا مّن كلّ مكانٍ فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[2] .

وفي الحديث عن عبد الله بن عمر قال: «أقبل علينا رسول ﷺ فقال: يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولو لا البهائم لم يُمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيَّروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[3].

❁ ❁ ❁

(1) سورة العنكبوت آية ٤٠

(2) سورة النحل آية ١١٢

(3) أبي عبد الله القزويني – سنن ابن ماجة – ج ٢ ص ١٣٣٢ (باب العقوبات)

الفصل الثالث:

منهج التربية الإسلامية في علاج آفات النفس

لما كانت النفس هي منبع الخير والفساد لدى الإنسان، وقد ألهمها الله فجورها وتقواها، فقد منحها قدرة التمييز والاختيار، إما طريق الخير وإما طريق الشر، وبين لها عاقبة ونتيجة كل اختيار قال تعالى: ﴿ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها ﴾[1] يقول سيد: ((وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان، هي التي تناط بها التبعة، فمن استخدم هذه القوة في تزكية النفس وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح ومن أظلم هذه القوة وخبأها فقد خاب))[2] .

ولما كانت النفس معرضة لكثير من العوامل والأسباب التي تُحي فيها بذور الشر، وتنشر الأمراض النفسية المختلفة، فإن معرفة تلك الأسباب والعوامل هي من الخطوات الأساسية التي ينبغي العناية بها في التربية النفسية، وتعد هذه الأسباب من الركائز الأساسية في تربية النفس أيضاً.

وحيث إن آفات النفس وعللها كثيرة ويصعب حصرها في مثل هذه الدراسة، إلا أننا نجد القرآن الكريم قد أشار إلى الأسباب الرئيسة لآفات النفس وعللها، فحذر الناس منها، وأمرهم بتجنبها ومحاربتها باعتبارها من الأمور

(1) سورة الشمس آية ٧- ١٠

(2) سيد قطب – في ظلال القرآن – ج ٦ ص ٣٠١٨

الضارة على النفس والتي تدفع بالنفس إلى الابتعاد عن منهج الله، وتجعل النفس تعيش في دوّامات لا حصر لها قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرينٌ وإنّهم ليصدّونهم عن السّبيل ويحسبون أنّهم مّهتدون﴾[1].

ولهذا فإن منهج التربية الإسلامية في علاج آفات النفس يقوم على تحديد الأسباب الأساسية لآفات النفس وعللها وأمراضها، وبين طرق الوقاية منها وعلاجها، كما بين العوامل التي تساعد على تربية النفس والمحافظة على سلامتها.

أسباب الآفات النفسية وعللّها:

في القرآن الكريم والسنة النبوية إشارات واضحة إلى أن أهم أسباب آفات النفس:

أولاً: الشيطان:

الشيطان العدو الأول للإنسان وقد حذرنا منه الرب تبارك وتعالى في أكثر من موقع في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبويكم مّن الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[2] وقال تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا الّتي هي أحسن إنّ الشّيطان ينزغ بينهم إنّ الشّيطان كان للإنسان عدوًّا مّبينًا﴾[3].

وأخبر الرسول ﷺ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، عن علي ابن الحسين «كان النبي ﷺ في المسجد وعنده أزواجه فرحن فقال لصفية بنت

(1) سورة الزخرف آية ٣٦

(2) سورة الأعراف آية ٢٧

(3) سورة الإسراء آية ٥٣

حييّ لا تتعجلي حتى انصرف معك وكان بيتها في دار أسامة فخرج النبي ﷺ معها فلقيه رجلان من الأنصار فنظرا إلى النبي ﷺ ثم أجازا وقال لهما النبي ﷺ إنها صفية بنت حييّ قالا سبحان الله يا رسول الله قال إن الشيطان يجري من ابن الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يُلقي الشيطان في أنفسكما شيئاً»[1].

وفي صحيح مسلم «أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته بأن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع فقال: ما لك؟ يا عائشة ! أغرت؟ فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: أقد جاءك شيطانك؟ قالت: يا رسول الله: أوَ معي شيطان؟ قال: نعم قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم قلت: ومعكَ؟ يا رسول الله! قال: نعم. ولكن ربي أعانني عليه حتَّى أسلم»[2] .

آثار الشيطان على النفس:

١– الوسوسة وزرع الشك في قلب المسلم :

خلق الله سبحانه وتعالى الشيطان وجعل له القدرة على الدخول إلى الإنسان والتأثير عليه، وكان آدم عليه السلام أول الضحايا، فقد وسوس الشيطان إلى آدم ليأكل من الشجرة التي حرّمها الله عليه، وكان هذا سبباً في خروج آدم عليه السلام من الجنة، قال تعالى: ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾[3] .

(1) البخاري – صحيح البخاري – ج ٢ ص ٢٥٨ (باب زيارة المرآة زوجها في اعتكافه)

(2) مسلم – صحيح مسلم – ج ٣ ص ٢١٦ (باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً)

(3) سورة الأعراف آية ٢٠

قال القرطبي: «الوَسْوَسة: الصوت الخفي. والوَسْوَسَة: حديث النفس. يقال: وسوَستْ عليه نفسه وَسْوسة ووسْواساً، والوَسْواس هو الشيطان. وكل ما حدَّثك ووسوس إليك»[1] وقد أقسم الشيطان أمام الرب تبارك وتعالى بأن يُضلَّ بني آدم ويغويهم، قال تعالى: ﴿قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين﴾[2] وقال تعالى: ﴿لّعنه اللّه وقال لأتّخذنّ من عبادك نصيبًا مّفروضًا ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق اللّه ومن يتّخذ الشّيطان وليًّا مّن دون اللّه فقد خسر خسرانًا مّبينًا﴾[3] وأخبر الرسول ﷺ أن الشيطان يأتي للمسلم ويغريه بالتفكر فيمن خلق الأشياء ويتدرج به حتى يوقعه في الكفر، في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ: «قال رسول الله ﷺ يأتي الشيطان أحدكم فيقولُ من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربّك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»[4] ولا شك أن استسلام العبد لهذا النوع من التفكير وعدم محاولة الانتهاء عنه يؤدي به إلى أشد أنواع الوساوس خطورة على الإنسان. يقول ابن حجر: « (فليستعذ بالله ولينته) أي عن الاسترسال معه في ذلك، بل يلجأ إلى الله في دفعه، يعلم أنه يريد إفساد دينه وعقله بهذه الوسوسة، فينبغي أن يجتهد في دفعها بالاشتغال بغيرها، قال الخطابي: وجه هذا الحديث أن الشيطان وسوس بذلك فاستعاذ الشخص بالله منه وكف عن مطاولته في ذلك اندفع، قال: وهذا بخلاف ما لو تعرض أحد من البشر بذلك فإنه يمكن قطعه بالحج والبرهان، وقال والفرق بينهما أن الآدمي يقع منه

(1) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج ٧ ص ١٧٧

(2) سورة ص آية ٨٢

(3) سورة النساء آية ١١٨– ١١٩

(4) البخاري – صحيح البخاري – ج ٤ ص ٩٢ (باب صفة إبليس وجنوده)

الكلام بالسؤال والجواب والحال معه محصورة، فإذا راعى الطريقة وأصاب الحجة انقطع، أما الشيطان فليس لوسوسته انتهاء بل كلما ألزم حجة زاغ إلى غيرها إلى أن يفضي بالمرء على الحيرة، نعوذ بالله من ذلك»[1] ولهذا أمر الرسول ﷺ بمن يجد مثل هذا التفكير أن يستعيذ بالله من الشيطان وينتهي عن مثل هذه الوساوس الشيطانية، ويقول آمنت بالله، عن أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول ﷺ: لا يزال الناس يتساءلون حتَّى يُقال: هذا، خلق الله الخلقَ، فمن خَلقَ الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقُل: آمنت بالله»[2] .

قال النووي: « (فليقل آمنت بالله) معناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه. قال المازري: ظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال، ولا نظر في إبطالها. قال: والذي يقال في هذا المعنى: إن الخواطر على قسمين، فأما التي بمستقرة ولا أجتلبها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها»[3].

ولا يقف حدود الشيطان عند مجرد التشكيك في الخالق، بل إنه يسعى إلى محاولة التسلط على الإنسان وجعله موسوساً يشك في أفعاله وتصرفاته، من ذلك تشكيك المسلم أثناء الوضوء فيغسل أعضائه عدة مرات ويعيد الغسل ظناً أنه لم يغسله، وإتيان الإنسان في صلاته فيحاول أن يفسد عليه صلاته، وذلك بكثرة الالتفات، عن مسروق ﷺ قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «سألت

(1) ابن حجر – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ج ٦ ص ٣٤١

(2) مسلم – صحيح مسلم – ج ١ ص ١١٩ (كتاب الإيمان)

(3) المرجع السابق

النبي ﷺ عن التفات الرَّجل في الصلاة، فقال: هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم»[١] .

فإذا كان حظ الشيطان من المؤمن يقف عند حدود الوسوسة، فإن علاج ذلك هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، أما الذين يسيرون خلف خطواته فالشيطان كما بيَّنا يستدرجهم حتى يهلكهم.

٢- الصد عن سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرينٌ وإنّهم ليصدّونهم عن السّبيل ويحسبون أنّهم مّهتدون﴾[٢] .

قال الطبري في تفسيره: ((ومن يعرض عن ذكر الله فلن يخف سطوته، ولم يخش عقابه، نجعل له قرين من الشيطان، وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله، عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة، ويكرّهون إليهم الإيمان بالله، والعمل بطاعته))[٣].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الّذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ مّن عمل الشّيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون إنما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصّلاة فهل أنتم مّنتهون﴾[٤].

فهذه بعض وسائل الشيطان للصد عن الصلاة وعن الطاعات: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

---

(1) البخاري – صحيح البخاري – ج ٤ ص ٩٥ (باب صفة إبليس وجنوده)

(2) سورة الزخرف آية ٣٦- ٣٧

(3) الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن – ج ٢٥ ص ٧٢ (بتصرف)

(4) سورة المائدة آية ٩٠- ٩١

٣- إلقاء الوهن والكسل في القيام بالواجبات:

ومن الوسائل التي يستخدمها الشيطان في صد الناس عن طاعة الله، إلقاء الوَهن والكسل حتى لا يقوم المسلم بالواجبات والنوافل التي شرعها الله للمسلم، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن، توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدُهُ كُلُّها فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النّفسي كسلان»[1] .

ثانياً: الكبْر :

جاء في لسان العرب: «الكبير في صفة الله تعالى: العظيم الجليل والمتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده، والكبرياء عظمة الله جاءت على فعلياء، قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى المتكبر والكبير أي العظيم ذو الكبرياء، وقيل المتعالي عن صفات الخلق، وقيل: المتكبر على عُتاة خَلْقه، والتاء فيع للتفرد والتخصص لا تاء التَّعاطي والتكلف. والكبرياء: العظمة والملك، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى، وقد تكرر ذكرهما في الحديث، وهما من الكبْر بالكسر، وهو العظمة، ويُقال كَبُر بالضم يَكْبُرُ أي عَظُمَ فهو كبير. ابن سيده: الكبَرُ نقيض الصّغَر، كَبُرَ كبْرَاً وكُبْراً فهو كبير وكُبَار وكُبّار بالتشديد إذا أفرط»[2] .

وجاء في الكليات: «التكبر: هو أن يرى نفسه أكبر من غيره،

(1) البخاري – صحيح البخاري – ج ٤ ص ٩١ (باب صفة إبليس وجنوده)

(2) ابن منظور – لسان العرب – ج ٥ ص ١٢٥ (الكبر)

والاستكبار: طلب ذلك بالتشبع وهو التزين بأكثر مما عنده»[١].

آثار الكبر على النفس:

للكبر تأثير واضح على النفس، وقد دلت الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية والتأريخ والآثار الثابتة عن العلماء على العلاقة الواضحة بين الكبر وانحراف النفس عن الطريق السوي، وعدم قبول الحق، ومحاربته بأشد ما يحارب الإنسان، والصد بكل الوسائل لمنعه من الانتشار. وقد كان الشيطان أول المتكبرين، قال تعالى: ﴿ إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالقٌ بشرًا من طينٍ فإذا سوّيته ونفخت فيه من رّوحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ ﴾[٢] وكان من المتكبرين فرعون وجنوده فرفضوا دعوة موسى، قال تعالى: ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحقّ وظنّوا أنّهم إلينا لا يرجعون ﴾[٣] وفي زمن النبي ﷺ كان الكبر مانعاً قوياً في عدم قبول كثير من الناس دعوة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ ثمّ أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثر إن هذا إلا قول البشر ﴾[٤] كما أخبر القرآن الكريم أن الكبر من أسباب رفض الإنسان لقبول الحق والإذعان إليه، قال تعالى: ﴿﴿ إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم إن في صدورهم إلا كبرٌ مّا هم ببالغيه فاستعذ بالله إنّه هو السّميع البصير ﴾[٥].

---

(1) أبو البقاء الكفوي – الكليات معجم المصطلحات والفروق اللغوية – ص ٢٨

(2) سورة ص آية ٧١– ٧٦

(3) سورة القصص آية ٣٩

(4) سورة المدثر آية ٢٣– ٢٥

(5) سورة غافر آية ٥٦

وقد أدرك الصحابة رضوان الله تعالى أهمية وخطورة الكبر على النفس فعالجوها بالتواضع للغير ومحبتهم وإيثارهم على أنفسهم ابتغاء وجه الله تعالى، كما أمر الشارع الكريم، وقد ذكرت كتب السنة والسيرة والتأريخ عدة أخبار وآثار عن مدى تواضع الصحابة ومحاربتهم للكبر في أنفسهم من ذلك، عن محمد بن عمر المخزومي عن أبيه قال: «نادى عمر بن الخطاب: الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس وكثروا صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلّى على نبيه ﷺ ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب فأظل يومي وأي يوم! ثم نزل فقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قمأت نفسك – يعني عبتَ – فقال ويحك يا ابن عوف !!إني خلوت فحدثتني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضل منك ! فأردت أن أعرّفها نفسها»[1].

من ذا أفضل منك !كلمة كثيراً ما يلقيها الشيطان في نفس الإنسان، فتجره إلى مهالك، إلاَّ عمر ﷺ فقد أدرك خطورتها فتدارك الأمر وعالجها بسرعة، حيث عرَّفها كيف كانت؟وماذا كانت تعمل؟

وهذا عبد الله بن سلام ﷺ مرّ في السوق وعليه حزمة من حطب فقيل له: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا؟ قال: أردت أن أدفع الكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة من في قلبه خردلة من كبْر»[2] .

هكذا كانت حياة الصحابة رضوان الله تعالى، حذرين أشد الحذر من الكبْر والتكبر، ولولا خشية الإطالة لأوردنا الكثير من المواقف التي تبين مدى

(1) الكاندهلوي – حياة الصحابة – ج ٢ ص ٥٦٢

(2) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٦٩

الحرص الشديد الذي كان عليه الصحابة على سلامة النفس والخوف عليها من الكبر وكل ما يضرها أو يُهلكها.

ثالثاً: الهوى :

((الهَوَى في اللغة بالفتح يَهوى هَوياً وهَاوياً وهَويانا، والهوى: سقط من فوق إلى أسفل، والهَوى العشق يكون في مداخل الخير والشر.

وهوى النفس: إرادتها والجمع الأهواء، قال اللغويون: الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه))[1] .

وجاء في الكليات أن أول مراتب الحب: الهوى، وهو ميل النفس، وقد يطلق ويراد به نفس المحبوب، ثم العلاقة: وهي الحب اللازم للقلب، وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب، واللوعة واللاعج مثل الشغف، فاللاعج: هو الهوى المحرق، واللوعة: حرقة الهوى، والجَوَى: هو الهوى الباطن وشدة الوجد من عشق أو حزن، والوَله: ذهاب العقل من الهوى، والهيام أن يذهب على وجه لغلبة الهوى عليه.[٢].

إن مدلولات الهوى اللغوية تبين بوضوح العلاقة الحميمة بين الهوى والنفس، بل إن هذه المدلولات لتصف حالات النفس نحو الأشياء والتعلق بها، وهو ما يؤكد أهمية الهوى وتأثيرها الواضح في النفس.

آثار الهوى على النفس:

إن الناظر في الأدلة والشواهد يرى آثار الهوى على النفس واضحة وجلية، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

(1) ابن منظور – لسان العرب – ج ١ ص ٣٧٠– ٣٧٥ (هوا)

(2) أبو البقاء الكفوي – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – ص ٣٩٨

أ – الهوى يمنع صاحبه من إتباع الحق:

قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1] وقال تعالى: ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾[2] ذكر ابن كثير في سيرته عن المغيرة بن شعبة أنه قال: «إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله أدعوك إلى الله، فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقوله حق، ولكن يمنعني شيء، إن بني قُصَّي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا نعم، ثم قالوا فينا السقاية فقلنا: نعم، ثم قالوا فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا فينا اللواء، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الرُّكب قالوا: منا نبي !والله لا أفعل»[3] فهذا حال أصحاب الأهواء تمنعهم عصبياتهم وحبهم للتفاخر من إتباع الحق والانقياد له رغم يقينهم وعلمهم بأنه حق، إلا من استطاع إن يغلب هواه ويقود نفسه إلى الطريق الصحيح فإننا نجد أنه قد اتبع الحق والتزم بكل تعليماته، بل نجدهم قد تركوا كل أموالهم وديارهم، وحاربوا آبائهم وأبناءهم في سبيل الحق، فهذا صُهيب يترك ماله لقريش مقابل أن يتركوه يهاجر إلى المدينة[4].

---

(1) سورة القصص آية ٥٠

(2) سورة القمر آية ٣

(3) ابن كثير – السيرة النبوية – ج ١ ص ٥٠٧

(4) المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٣

نقل ابن كثير عن ابن هشام قوله: ((حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن عمر بن الخطاب قال لسعيد بن العاص ومرّ به إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن أني قتلت أباك؟إني والله لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكن قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به، وهو يبحث بحث الثور بروقه، فحُدتُ عنه وقصد له ابن عمه علي فقتله))[1].

لا شك أن مخالفة الإنسان هواه وما يتعلق به من حب المال والجاه والحياة هو من أصعب الأمور على الإنسان، ولكن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قدّموا أصدق الأمثلة، وأفضل المواقف التي تبين وتصور مدى قدرة الإنسان على مخالفة هواه وإتباعه للحق وكل تبعاته، مهما كانت تلك التبعات.

ب – الهوى يمنع صاحبه من العدل:

العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجَور، عَدَل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً وهو عادل من قوم عدول وعدل. وعدل الموازيين والمكاييل: سوّاها، وعدل الشيء يعدله عدلاً، وعادله: وازنه، وعادلت بين الشيئين، وعدلت فلاناً بفلان إذا سويت بينهما، وتعديل الشيء: تقويمه، وقيل: العدل تقويمك الشيء من غير جنسه حتى تجعل له مثلاً.[2] .

وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل، فأجابه: ((إن العدل على أربعة أنحاء: العدل في الحكم قال تعالى: ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم العدل ﴾ والعدل في القول قال تعالى: ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا﴾ والعدل: الفدية قال تعالى: ﴿ ولا يقبل منها عدل ﴾ والعدل في الاشتراك قال تعالى: ﴿ ثم الذين بربهم

(1) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٦

(2) ابن منظور – لسان العرب – ج ١١ ص ١٣٢ (عدل)

يعدلون﴾ أي يشركون))[1] ولما كان العدل أمر متعلق بالنفوس، ولهذا جاء الأمر بمخالفة الهوى وإقامة العدل قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا ﴾[2].

ذكر سيد قطب في بيان أهمية النفس ودورها في إقامة العدل بقوله: ((وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها وفي وجه عواطفها، تجاه ذاتها أولاً، وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً.. وهي محاولة شاقة.. أشق كثيرا من نطقها باللسان، ومن أدرك معناها ومدلولها بالعقل.. إن مزاولتها عمليا شيء آخر غير إدراكها عقليا.. ثم هو تجنيد النفس كذلك في مشاعرها النظرية أو الاجتماعية، حين يكون الشهود له أو عليه تعبيراً، تشفق النفس من شهادة الحق ضده، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية، وحين يكون المشهود له أو عليه غنيا، تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته، أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده ! فهي مشاعر نظرية أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع))[3] .

وعلى هذا المنهج الرباني تربى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فالتزموا به، فهذا عبد الله بن رواحة يكلفه رسول الله ﷺ بحصر ثمار خيبر ((وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا إلى

(1) المرجع السابق

(2) سورة النساء آية ١٣٥

(3) سيد قطب – في ظلال القرآن – ج ٢ ص ٧٧٦

رسول الله ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال يا أعداء الله تطعمونني السحت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي ولأنتم إلي من القردة والخنازير ولا يحملنَّ بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم فقالوا بهذا قامت السماوات والأرض»[١].

فهذا عدل الإسلام طبقه ابن رواحة ﷺ بين أحب الخلق إلى نفسه وأبغض الخلق، فشهد له الأعداء بالعدل.

وموقف آخر لعلي ﷺ حينما جاء جَعْدة ابن هبيرة فقال: «يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه، أو قال من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا ! قال: فلهزه علي ﷺ وقال: إن هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء لله»[٢].

ج – الهوى يضلُّ صاحبه:

قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٣] وقال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قومٍ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل﴾[٤].

يقول ابن عاشور في تفسيره قوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه﴾: «ووجه كونه لا أضل منه أن الضلال في الأصل خطأ الطريق وأنه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقة أو الخطر أو الهلاك بالكلية على حسب تفاوت شدة الضلال

(1) ابن كثير –البداية والنهاية – ج ٤ ص ٢١١

(2) الكاندهلوي – حياة الصحابة – ج ٢ ص ١٠٧

(3) سورة القصص آية ٥٠

(4) سورة المائدة آية ٧٧

وإتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الغير بدون تحديد ولا انحصار. ولا جرم أن يكون هذا الإتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال فصاحبه أشد الضالين ضلالاً»[1].

والإغراق في حب ما لا ينبغي الإغراق في حبه هو أساس الهوى الباطل كما جاء في الكليات، ولهذا جاءت الآيات والأحاديث تنهى عن الإغراق في المحبة للأمور التي لا ينبغي للمسلم الإغراق في محبتها كحب الدنيا والمال والجاه والسلطان والعصبية القبلية وسائر الأمور التي تورث الإنسان الجور والضلال والبعد عن الحق، ولخطورة أهل الأهواء حث كبار علماء الأمة على تجنبهم وعدم مجالستهم. وقد نقل الدارمي في سننه الكثير من التوجيهات التي تنصح المسلمين بعدم مجالسة أهل الأهواء، فعن الحسن البصري وابن سيرين أنهما قالا: «لا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[2] .

ولما كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يدركون خطورة الهوى، حرصوا على تجنب كل العوامل المعينة للهوى، فأخرجوا الدنيا من قلوبهم، وجعلوا حب الله وحب رسوله ﷺ هو المقدم على كل شيء، وكانوا يحرصون اشد الحرص على مجالس العلم وعلى الالتزام بمنهج النبوة وعدم الخروج عن هذا المنهج، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «إن أصحاب الرأي أعداء السنة، أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم»[3].

(1) ابن عاشور – تفسير التحرير والتنوير – ج ٢٠ ص ١٤٠

(2) الدارمي – سنن الدارمي – ج ١ ص ١٠٨ (المقدمة)

(3) ابن عبد البر – جامع بيان العلم وفضله – ج ٢ ص ١٣٦

فهكذا أصحاب الأهواء يستحيون من الناس ولا يستحيون من الحق تبارك وتعالى فتركوا السنة والتجئوا إلى الرأي فضلوا وأضلوا.

العوامل المعينة على التربية النفسية:

ومما يعين على تربية النفس والمحافظة على سلامتها، بالإضافة إلى الركائز والأسس وتجنب أسباب الآفات النفسية السابقة مراعاتهم للعوامل المعينة التالية:

أولاً: المراقبة والمحاسبة الدقيقة للنفس:

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ واتقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾[1].

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾: ((أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم))[2].

وقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من أفضل من حاسب نفسه، فقد كانوا شديدي الحرص على ملازمة السنة وعدم مخالفتها، مهما الظروف، وإذا ما وقع أحدهم في ذنب أو شك أنه وقع في ذنب يُسرع إلى رسول الله ﷺ يسأله المخرج والتوبة، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: ((إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات))[3].

وجاء في الحلية ((أن سعد بن أبي وقاص دخل على سلمان يعوده فبكى سلمان. فقال ما له سعد: ما يبكيك تلقى أصحابك، وترد على رسول الله ﷺ

(1) سورة الحشر آية ١٨- ١٩

(2) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج ٤ ص٣٦٦

(3) أحمد بن حنبل – المسند – ج ٣ ص ٣

الحوض، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض. فقال: ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا فقال: «ليكن بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب» وهذه الأساود حولي، وإنما حوله مطهرة – أو إنجانة – ونحوها. فقال له سعد: اعهد إلينا عهداً نأخذ به بعدك، فقال له: اذكر ربك عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت»[1] هكذا كان الصحابة يخافون على أنفسهم، ويحاسبونها أشد الحساب، وينصحون غيرهم بالتمسك بالسنة والخوف من الله سبحانه وتعالى، ومراقبته بصورة دائمة.

ثانياً: الابتعاد عن الرفقة السيئة والتزام الرفقة الحسنة:

دلت الأدلة والآثار الواردة من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال العلماء والحكماء على أهمية الرفقة وأثرها البالغ على النفس الإنسانية، وحسبنا في هذا المقام قوله تعالى: ﴿قال قرينه ربّنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيدٍ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظّالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلًا يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلانًا خليلًا لقد أضلّني عن الذّكر بعد إذ جاءني وكان الشّيطان للإنسان خذولًا﴾[3].

وجاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[4] وفي كتابه (الصحبة والمجالسة وأثرهما في

(1) أبو نعيم – حلية الأولياء – ج ١ ص ١٩٥– ١٩٦

(2) سورة ق آية ٢٧

(3) سورة الفرقان آية ٢٧– ٢٩

(4) مسلم – صحيح مسلم – ج٣ ص ٢٠٢٦(باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة =

تربية الفرد على ضوء الإسلام) ذكر المؤلف أنواع (جليس الصالح) فذكر:

١- مجالسة أصحاب العقيدة الصحيحة .

٢- مجالسة قراءة القرآن الكريم .

٣- مجالس الذكر .

٤- مجالس نيل العلم الشرعي .

٥- مجالس أهل الصدق .

٦- مجالس الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

٧- الجلوس الكتاب "القراءة والإطلاع ".

٨- الجلوس إلى النفس ومحاسبتها .

٩- الجلوس في عبادة[1] .

ولا شك في أن هذه المجالس هي مجالس الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فمن الآثار الدالة على اهتمام الصحابة بهذه المجالس واستغلالهم لها في تربية النفس ما جاء صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: «خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال: آلله !ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله !ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم استحلفكم تُهمة لكم. وما كان أحد بمنزلتي من رسول ﷺ أقل عنه حديثاً مني. وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه. فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ به علينا. قال: آلله !ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله !ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تُهمة لكم.

= قرناء السوء)

(1) عبد الرحمن الأحمدي – الصحبة والمجالسة وأثرهما في تربية الفرد على ضوء الإسلام

ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يُباهي بكم الملائكة»[1] فهذا الحديث يصف مجلسين من مجالس المسلمين، وحسن اعتنائهم بمجالس الذكر، والتأكيد على أن هذه المجالس لله سبحانه وتعالى وليس لأي غرض دنيوي آخر.

ثالثاً: الابتعاد عن المعاصي والأمور التي تؤدي إليها

جاء في الكليات «العصيان: بحسب اللغة هو المخالفة لمطلق الأمر لا المخالفة للأمر التكليفي خاصة، يرشدك إليه قول عمرو بن العاص لمعاوية: أمرتك أمراً جازماً فعصيتني، والعاصي: من يفعل محظوراً لا يرجو الثواب بفعله، بخلاف المبتدع، فإنه يرجو به الثواب في الآخرة. والعاصي والفاسق في الشرع سواء»[2] .

وفي كتاب (المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع) ذكر المؤلف أن المعاصي (ترك المأمورات وفعل المحظورات، أو ترك ما أوجب وفرض من كتابه أو على لسان رسوله وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله ﷺ من الأقوال والأعمال الظاهرة أو الباطنة)[3] ثم ذكر أن معنى العصيان جاء بألفاظ كثيرة منها (الذنب – الخطيئة السيئة– الحوب– الإثم– الفسوق والعصيان – الفساد– العتو)

إن آثار المعاصي سواء كانت ذنوباً أم خطيئة أم فسوقاً وعصياناً على النفس واضحة وقد دلت الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية على ذلك، قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[4] .

---

(1) مسلم – صحيح مسلم – ج٣ ص ٢٠٧٥ (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر)

(2) أبو البقاء الكفوي – الكليات – ص ٤٠

(3) حامد المصلح – المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع – ص ٣٠– ٣١

(4) سورة المطففين آية ١٤

في صحيح مسلم عن حذيفة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً. فأيُّ قلبٍ أشربها نُكتَ فيه نُكتة سوداء. وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكت فيه نُكتة بيضاء. حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصّفا فلا تضره فتنة ما دامت السَّماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً، كالكوز مُجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر مُنكراً. إلا ما أُشرب من هواه»[1] .

قال النووي: « (فأيُّ قلب أشربها) أي دخلت فيه دخولا تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب. ومنه قوله تعالى: ﴿وأُشربوا في قلوبهم العجل﴾، أي حب العجل. ومنه قولهم: ثوب مشرب بحمرة، أي خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها. (كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا) أي: بأنه قلب نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة»[2] .

وذكر ابن القيم أن الذنب «يميت القلب، أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته حتى ينتهي إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي (الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال..) ويقول أيضاً في تأثير الذنوب على النفس: إنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف، أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأمارة، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتا لا يرجى معه حياة.. وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو إن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر عليه النطق

(1) مسلم – صحيح مسلم – ج ١ ص ١٢٨ (كتاب الإيمان)

(2) المرجع السابق ص ١٢٩

بالشهادة، كما شاهد الناس كثير من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم قل: (لا إله إلا الله) فقال آه آه، لا أستطيع أن أقولها، وقيل لآخر قل (لا إله إلا الله) فقال شاه، رخ غلبتك ثم قضي»[1] .

وقد لخص حامد آثار المعاصي على القلب في النقاط التالية:

«١- أنها تضعف تعظميه وقار الرب .

٢- أنها تذهب حياء القلب وغيرته .

٣- أنها تنكس القلب وتزيغه عن الحق .

٤- أنها تؤدي إلى حرمان العلم النافع .

٥- أنها تورث الوحشة في القلب وتضيق الصدر .

٦- أنها توهن القلب وتظلمه .

٧- أنها تؤدي إلى استصغار الذنب ومسخ القلب»[2] .

ولعظيم تأثير الذنوب على النفس كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من أشد الناس خوفاً منها، وبُعداً عنها، وعن كل المسببات المؤدية إليه، ولهذا كانت نفوسهم من أعظم النفوس توقيراً لله وحياءً منه تبارك وتعالى، وتعظيماً للذنوب، وحسبك برهاناً على ذلك ما جاء في حديث أبي أمامة: «أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول إني أصبت حداً فأقمه علي. قال: توضأت حين أقبلت؟ قال: نعم، قال: هل صليت معنا حين صلينا؟ قال: نعم، قال اذهب فإن الله قد عفا عنك»[3] .

---

(1) ابن القيم – الداء والدواء – ص ٨٦

(2) حامد المصلح – المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع – ص ١٠٦- ١١٤

(3) ابن القيم – عون المعبود شرح سنن أبي داوود – ج ١٢ ص ٣٠ (باب الرجل يعترف =

«وجزم النووي وجماعة أن الذنب الذي فعله كان من الصغائر بدليل قوله: إن كفارته الصلاة بناء على أن الذي تكفره الصلاة من الصغائر لا الكبائر انتهى»[١].

وهذا ماعز ﷺ يعترف بالزنى أمام رسول الله ﷺ أربع مرات فيسأله الرسول ﷺ: «فما تريد بهذا القول؟ قال: أريد أن تطهرني، فأقسم الرسول ﷺ والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس (ينقمس) فيها»[٢].

هكذا كانوا يعظمون حرمات الله، فلا يرون طريقاً لطهارة النفس من تلك الذنوب إلا بإقامة الحد على أنفسهم، ولهذا كانت الجنة جزاهم.

أخرج ابن عبد البر عن عثمان بن أبي داوود قال: «سمعت الزهري يقول: دخلنا على أنس بن مالك بدمشق وهو وحده يبكي قلت: ما يبكيك؟ قال: لا أعرف مما أدركت إلا هذه الصلاة وقد ضيعت»[٣] إنهم لا يبكون على ذنوبهم فقط، بل يبكون ويخشون حتى من ذنوب الآخرين، لأنهم يدركون معنى قوله تعالى: ﴿ واتّقوا فتنةً لّا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّةً واعلموا أنّ اللّه شديد العقاب﴾[٤].

رابعاً: الترويح الهادف :

انقسم الناس في موضوع الترويح إلى قسمين: قسم بالغ في عملية الترويح، فجعل حياته كلها لعب بحجة أن الترويح لازم للإنسان، وقسم وقف

= بحد ولا يسميه)

(1) المرجع السابق

(2) المرجع السابق ج ١٢ ص ٧٢ (باب رجم ماعز)

(3) ابن عبد البر – جامع بيان العلم وفضله – ج ٢ ص ٢٠٠

(4) سورة الأنفال آية ٢٥

ضد الترويح وجعل حياته كلها عمل جاد، وقد حدث مثل هذا النوع في عهد رسول الله ﷺ في باب فضل الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، أورد مسلم عن حنظلة الأسيدي قال: «لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة. قال سبحان ! ما تقول؟ قال قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يُذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عَين. فإذا خرجنا من عند رسول ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول ﷺ. قلت نافق حنظلة يا رسول الله !فقال رسول الله ﷺ وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تُذكرنا بالنار وبالجنة. حتى كأنا رأي عين. فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات. نسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طُرقكم. ولكن يا حنظلة ! ساعة وساعة ثلاث مرات»[1] .

هكذا بين الرسول ﷺ لأمته منهج الإسلام في الترويح، ساعة وساعة، وأن اللعب مع الأزواج والأولاد وإدخال السرور إليهم من الإسلام، وكان النبي ﷺ يلاعب أبناء الصحابة، ويدخل السرور عليهم، ويمرح معهم ويستأنس بهم، ويشجعهم على اللعب البريء، والمرح المباح.[2].

في المسند عن عبد الله بن الحرث قال: «كان رسول الله يصفُّ عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العباس ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا، قال:

(1) مسلم – صحيح مسلم – ج ٣ ص ٢١٠٦– ٢١٠٧

(2) عبد الله علوان – تربية الأولاد في الإسلام – ج ٢ ص ١٠١٤

فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم»[1].

الدراسات النفسية المعاصرة:

مما لاشك فيه إن الدراسات النفسية ليست وليدة اليوم، بل هي قديمة جداً، غير أن الدراسات النفسية المعاصرة أخذت شهرتها الواسعة بعد استخدام المنهج العلمي القائم على التجربة والمشاهدة، وقد توسعت الدراسات النفسية توسعاً كبيراً حتى تعددت أنواعها فأصبح من الصعوبة على دارس واحد أن يلم بكل هذه الأنواع.

وقد ازدادت أهمية الدراسات النفسية مع استخدامها في المجالات الإعلامية والاقتصادية والتربوية والعسكرية والرياضية وفي الصحة النفسية وغيرها.

ولهذا فإن الحديث عن الأساليب النفسية وطرق العلاج يحتاجان إلى دراسات خاصة، كما أن الرد على ما في الدراسات النفسية من مخالفات شرعية يحتاج إلى دراسات متخصصة ومتأنية، فمن ذلك ما جاء في كتاب (تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس) ذكر المؤلف أن من أساليب حل المشكلات عند علماء النفس والتوجيه والإرشاد النفسي (التداعي الطليق) وهو (ترك المريض أو دفعه ليعبر شفاهة عن كل ما يدور بذهنه وبينما يبدو ذلك الأمر سهلاً، فإن الواقع يظهر أنه من أصعب الأمور دفع المريض إلى اتخاذ هذا السلوك) «إن المنهج الإسلامي للتربية يقدر خطورة إفصاح المرء عن جرائمه وآثامه التي ارتكبها خاصة الجرائم المتصلة بالانحلال الأخلاقي والتعدي على الأعراف لما في ذلك من المجاهرة بالمعصية والفتنة، وإن كانت المعصية تستوجب حداً فالأمر

(1) أحمد بن حنبل – المسند – ج ١ ص ٢١٤

أعظم، ولأن كشف الذنوب التي سترها الله على فاعلها لا يغفرها الله سبحانه بعد إعلانه عنها وكشفه لها إلا يكون قاصداً الإقرار بالمعصية ليقام عليه الحد الذي تستوجبه أو ليرد لصاحب المظلمة حقه ويوفيه له، وذلك طهارة للنفس من آثارها، وينتج عنه الشعور بالراحة ويحقق صحة عقلية ونفسية زاكية ناضرة. روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا كذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه» [1] .

إن الإعلان عن المعصية والتحدث عنها للمرشد المعالج لا يخلص النفس من آثارها المعتمة وظلالها الكثيفة بل إنه يزيد من أثقال النفس ويعرضها إلى الصراع الداخلي المحتدم، ووجود هذا الصراع في نفس المراهق والشباب حتمي لأن شعوره بافتضاح أمره للمرشد أو لأي شخص آخر لا يساعد على نسيان الموقف وإن حقق له راحة موقوتة بزمن التحدث عما يعنيه من آثار فعلته)) [2] .

(في رأي الباحث) إن قيام الشخص بالإعلان عن ذنوبه والتحدث بها إلى المرشد المعالج لا يُعدُّ مجاهراً، ذلك لأن المرشد المعالج يقوم مقام الطبيب أو المفتي (وريث النبي ﷺ) الذي يُعين صاحب المعصية على الخروج من الأزمة التي يعيش فيها بسبب ارتكابه لتلك المعصية، وقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يأتون إلى النبي ﷺ فيعترفون أمامه بجرائمهم، فعن ابن عمر ﷺ قال: «أتى رسول الله رجل فقال يا رسول الله أذنبت ذنباً كبيراً فهل لي من توبة؟ فقال له رسول ﷺ: ألك والدان؟ قال: لا، قال: فلك خالة، قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ:

(1) البخاري – صحيح البخاري – ج ٧ ص ٨٩ (كتاب الأدب)

(2) محمد الزعبلاوي – تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس – ص ٤٢٨– ٤٢٩

فبرها إذاً»[١].

وعن ابن مسعود ﷺ: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فذكر أنه أصاب من امرأة قبلة فجعل يسأل عن كفارتها. فلم يقل له شيئاً فأنزل الله عز وجل ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ فقال الرجل: يا رسول !ألي هذه؟ فقال: هي لمن عمل بها من أمتي»[٢].

إن إتيان الطالب أو المذنب إلى أستاذه أو المرشد الاجتماعي والاعتراف أمامه بجرائمه لا يُعدُّ من باب المجاهرة بالمعصية، بل هو وسيلة للتطهير منها، ودور المرشد هنا هو دور الطبيب أو المفتي الذي يقوم مقام النبي ﷺ في مساعدة المسلمين على تجاوز أزماتهم النفسية، وهذا المرشد إنما وُضع من قبل المسئولين لمساعدة أولئك الطلاب في الوصول إلى الحلول المناسبة لما ارتكبوه من ذنوب وجرائم، ولا شك أن الدراسات النفسية تساعد أولئك المختصين في العلاج كثيراً.

غير أنه ينبغي التأكيد أن في علم النفس الكثير من الموضوعات المخالفة لمبادئ وأخلاق عقيدتنا الإسلامية، وقد طُرحت الكثير من هذه الموضوعات ونُوقشت في كتب علم النفس الإسلامي، ولكن الموضوع واسع والمشوار طويل ويحتاج إلى جهد كبير حتى يكون لدينا علم نفس إسلامي يعالج آفات النفس ومشكلاتها وأمراضها وعللها بكفاءة عالية.

(1) أحمد بن حنبل – المسند – ج ٢ ص ١٤

(2) ابن ماجه – سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢١ (كتاب الزهد)

الخاتمة

وفي الختام لا يسع الباحث إلا أن يؤكد على أن الالتزام بمنهج التربية الإسلامية في جميع شؤون حياتنا هو الحصن المنيع والعلاج الناجع لكل أمراض النفس وعللها.

قال تعال ﴿يا أيها النّاس قد جاءتكم موعظةٌ من ربّكم وشفاءٌ لما في الصّدور وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين قل بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين قل أغير اللّه أبغي ربًّا وهو ربّ كلّ شيءٍ ولا تكسب كلّ نفسٍ إلاّ عليها ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[2] .

إن منهج التربية الإسلامية في تربية النفس يقوم على التزام المؤمن بكل الفرائض والنوافل، والذكر المشروع، وفعل الطاعات، والأعمال الخيرية على النهج الذي شرعه الله سبحانه وتعالى، وبذلك يفرح المؤمن ويدخل السرور إلى نفسه، وهو خير من كنوز الدنيا، وأي تقصير في ذلك يعود أثره على النفس.

فكل عمل يقوم به المؤمن يبتغي وجه الله سبحانه وتعالى يحصل من الأجر والسعادة في الدنيا والآخرة ما يجعل حياته طيبة، ونفسه كذلك، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منْزلاً»[3] كيف لا تصلح النفوس وتطيب

(1) سورة يونس آية ٥٧– ٥٨

(2) سورة الأنعام آية ١٦٢– ١٦٤

(3) المباركفوري – تحفة الأحوذي – ج ٦ ص ١٤٦ (باب ما جاء في زيارة الإخوان)

وهي منشغلة بزيارة المرضى، والإخوان لله تعالى وليس لمغرم أو مغنم، وبفعل الخير كما أمرهم ربهم تبارك وتعالى. وقد بين الرسول ﷺ أن أمر المؤمنين كله خير، وهذه الخيرية للمؤمنين فقط، وليس لغير المؤمنين لهم نصيب من الخيرية، عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له»[1].

فهل من الممكن أن يُصاب المؤمن بأمراض نفسية وهو يعيش بمثل هذه العقيدة وبمثل هذا المنهج؟نعم قد يُصاب ولكن كما قال وتعالى ﴿ومن يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرينٌ وإنّهم ليصدّونهم عن السّبيل ويحسبون أنّهم مّهتدون﴾[2] والعلاج هو في هذا القرآن وهذا المنهج القويم قال تعالى: ﴿قل هو للّذين آمنوا هدًى وشفاء والّذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمًى أولئك ينادون من مّكانٍ بعيدٍ﴾[3] .

وأختم هذه الدراسة بما ورد في دراسة لعالمة النفس في جامعة كاليفورنيا (سونجا ليبومير سكي) بالتعاون مع آخرين، والتي نشرتها (مجلة التايم – الطبعة الأمريكية ٧ /٢ /٢٠٠٥ م) حول الخطوات الثمانية التي يمكن اتباعها لرفع درجة السعادة أو الرضا النفسي، ومن هذه الخطوات القيام بالأعمال الحسنة كتقديم رجل مسن في طابور البنك، أو زيارة قريب محتاج، فهذه الممارسات تمنحك شعوراً بالثقة والجود والعطاء، كما تعطيك القدرة على الاتصال

(1) مسلم – صحيح مسلم – ج ٣ ص ٢٢٩٥ (باب المؤمن أمره كله خير)

(2) سورة الزخرف آية ٣٦– ٣٧

(3) سورة فصلت آية ٤٤

بالآخرين وإشاعة أجواء من السعادة والابتسامة والرضا.[1] وصدق الرسول ﷺ حينما قال في حق من زار أخاً: «طبت وطاب ممشاك وتبوأت بالجنة منْزلاً».

❁ ❁ ❁

(1) سالم سحاب – خطوات نحو السعادة – جريدة المدينة المنورة، العدد ١٥٣٠٣ في ٧ /٢ /١٤٢٦هـ

فهرس المراجع

– القرآن الكريم

١. إبراهيم أنيس وآخرون – المعجم الوسيط – دار إحياء التراث العربي، ط ٢ .
٢. ابن الأثير– الكامل في التأريخ – دار الكتاب العربي، ط٦، ١٤٠٦هـ.
٣. ابن الجوزي – زاد المسير في علم التفسير – المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.
٤. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان. .
٥. ابن القيم – الداء والدواء – مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة .
٦. ابن القيم – الروح – دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ.
٧. ابن القيم – زاد المعاد في هدي خير العباد – تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ١٤٠٣هـ.
٨. ابن القيم – الفوائد – دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ.
٩. ابن القيم – عون المعبود شرح سنن أبي داود – دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.
١٠. ابن القيم – مدارج السالكين – دار الحديث، القاهرة.
١١. ابن عاشور – تفسير التحرير والتنوير– الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤ .
١٢. ابن عبد البر –جامع بيان العلم وفضله –دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨.
١٣. ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – تقديم يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ط ١، ١٤٠٥هـ.
١٤. ابن كثير– البداية والنهاية –تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
١٥. ابن كثير – السيرة النبوية – تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.
١٦. ابن منظور – لسان العرب – دار الرشاد الحديثة.

١٧. ابن هشام – السيرة النبوية – تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٨. أحمد بن حنبل – المسند – دار الدعوة إسطنبول، ١٩٨٢ .
١٩. أبو البقاء الكفوي – الكليات معجم المصطلحات والفروق اللغوية – تحقيق عدنان درويش وآخر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.
٢٠. أبو عيسى بن سورة – سنن الترمذي– دار الدعوة، إسطنبول، ١٩٨١.
٢١. أبو محمد الدارمي – سنن الدارمي – دار الدعوة، إسطنبول، ١٩٨١ .
٢٢. أحمد يحي النجمي – تنزيه الشريعة عن الأغاني الخليعة – الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٥هـ.
٢٣. الألباني محمد ناصر الدين – صحيح سنن الترمذي – مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط ٣، ١٤٠٨هـ.
٢٤. الألباني محمد ناصر الدين –صحيح سنن ابن ماجه – مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، ١٤٠٨هـ.
٢٥. البخاري محمد بن إسماعيل – صحيح البخاري – دار الدعوة إسطنبول، ١٩٨٢ .
٢٦. بكر أبو زيد –التمثيل حقيقته، تأريخه، حكمه، دار الراية الرياض، ط١٤١١هـ.
٢٧. الراغب الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – تحقيق محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت لبنان .
٢٨. الزنتاني، عبد الحميد الزنتاني – أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية – الدار العربية، ليبيا، ١٩٨٤ .
٢٩. الجوهري، إسماعيل الجوهري – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية – دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
٣٠. حامد المصلح – المعاصي وآثارها على الفرد والمجتمع – مكتبة الضياء، جدة، ط١، ١٤١٠هـ.
٣١. حسن الشرقاوي – نحو علم نفس إسلامي – مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤ .
٣٢. خالد الحازمي – أصول التربية الإسلامية – دار عالم الكتب، الرياض، .

٣٣. ط١، ١٤٢٠هـ.
٣٤. سيد سابق – العقائد الإسلامية – دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ.
٣٥. سيد قطب – في ظلال القرآن – دار العلم، جدة، ط ١٢، ١٤٠٦هـ.
٣٦. سيد عبد الحميد مرسي – النفس البشرية– مكتبة وهبة، عابدين، ١٤٠٢هـ.
٣٧. سيد عبدالحميد مرسي–النفس المطمئنة– مكتبة وهبة، عابدين، ١٤٠٣هـ.
٣٨. الطبري، محمد بن جرير الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن – دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٣٩. الطبري، محمد بن جرير الطبري – تأريخ الطبري – تحقيق محمد أبي الفضل، دار سويدان، بيروت، ١٣٨٢هـ.
٤٠. القرطبي، محمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – صححه أبو إسحاق .
٤١. الكاندهلوي، محمد الكاندهلوي – حياة الصحابة – تحقيق نائف العباس وآخر، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٤٠٥هـ.
٤٢. عبد الرحمن بدوي – الأخلاق النظرية – وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٦٦.
٤٣. عبد الرحمن سليمان – الخوف والرجاء – رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١١هـ .
٤٤. عبد الرزاق البدر – فقه الأدعية والأذكار – دار ابن عفان، ١٤١٩هـ.
٤٥. عبد الرشيد سالم – التربية الإسلامية وطرق تدريسها – دار البحوث العلمية العلمية، الكويت، ١٩٨٣ .
٤٦. عبدالله علوان– تربية الأولاد في الإسلام– دار السلام، حلب، ١٤٠١هـ.
٤٧. علي إبراهيم الزهراني وآخر – النمو الإنساني ومراحله في المنهج الإسلامي – دار الخضيري، المدينة المنورة، ١٤١٩هـ .
٤٨. علي كمال – النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها – الدار العربية، بغداد، ط ٢، ١٩٨٣ .
٤٩. عمر الأشقر – اليوم الآخر القيامة الصغرى–مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٨ .
٥٠. المباركفوري، محمد المباركفوري– تُحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي– تصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر .

٥١. محمد البهي – الإسلام في حياة المسلم – دار الفكر .
٥٢. محمد الزعبلاوي – تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس – مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.
٥٣. محمد الصادق عرجون – محمد رسول الله ﷺ – دار القلم، دمشق، ١٤٠٥هـ.
٥٤. محمد المسند– العائدون إلى الله– دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.
٥٥. محي الدين النووي – رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – دار الخير دمشق، ط ٤، ١٤١٤هـ.
٥٦. مسلم بن الحجاج القشيري– صحيح مسلم – دار الدعوة، إسطنبول.
٥٧. تحقيق علي عبد الحميد بلطجي، دار الخير، بيروت، ١٩٩٣ .

فهرست الموضوعات

مقدّمة ٤١١
- أهمية الدراسة ٤١٢
- مشكلة الدراسة..... ٤١٤
- أهداف الدراسة..... ٤١٤
- حدود الدراسة..... ٤١٥
- منهج الدراسة..... ٤١٥
- مصطلحات الدراسة..... ٤١٥
- الدراسات السابقة..... ٤١٦
- خطة الدراسة..... ٤١٨
- مدخل الدراسة..... ٤١٨

الفصل الأول: خصائص النفس في القرآن الكريم و السنة النبوية ٤١٩
١– النفس اللوَّامة ٤٢١
دور النفس اللوَّامة في التربية النفسية ٤٢٣
٢– النفس المطمئنة ٤٢٥
دلائل الاطمئنان ٤٢٧
٣– النفس الأمَّارة ٤٣١
الفصل الثاني: ركائز منهج التربية الإسلامية في تربية النفس..... ٤٣٤
- الركيزة الأولى: صدق الإيمان؟..... ٤٣٥

أثر صدق الإيمان على النفس..... ٤٣٦

- الركيزة الثانية: حسن الإتباع والإقتداء بالنبي ﷺ.....٤٤٣
- الركيزة الثالثة: القيام بالعبادات المشروعة.....٤٤٧

آثار العبادات على النفس ٤٤٧

- الركيزة الرابعة: الالتزام بالذكر المشروع.....٤٥٠

آثار الذكر على النفس ٤٥١

- الركيزة الخامسة: الخوف والرجاء.....٤٥٣

آثار الخوف والرجاء على النفس ٤٥٣

- الركيزة السادسة: التحلي بالصبر.....٤٥٦
- الركيزة السابعة: الالتزام بالأخلاق الإسلامية.....٤٥٩

آثار التربية الخُلقية على النفس ٤٦٣

الفصل الثالث ٤٦٦

منهج التربية الإسلامية في علاج آفات النفس ٤٦٦

أسباب الآفات النفسية وعللّها ٤٦٧

أولاً: الشيطان ٤٦٧

ثانياً: الكبْر ٤٧٢

ثالثاً: الهوى..... ٤٧٥

العوامل المعينة على التربية النفسية: ٤٨١

أولاً: المراقبة والمحاسبة الدقيقة للنفس ٤٨١

ثانياً: الابتعاد عن الرفقة السيئة والتزام الرفقة الحسنة..... ٤٨٢

ثالثاً: الابتعاد عن المعاصي والأمور التي تؤدي إليها ٤٨٤

رابعاً: الترويح الهادف ٤٨٧

الدراسات النفسية المعاصرة ٤٨٩
الخاتمة ٤٩٢
فهرس المراجع..... ٤٩٥
فهرست الموضوعات..... ٤٩٩